الفصل السابع

# الثقافة وأحوال العمران أيام الأيوبيين والمماليك

تلقت الحياة الثقافية والعلمية في فلسطين ضربة قاضية جرّاء وقوعها في قبضة الصليبيين، إذ خلت المدن الفلسطينية من سكانها العرب والمسلمين وتعطلت مؤسساتها العلمية والثقافية؛ فمن لم يلق من أهل المدن حتفه في تلك المجازر البشرية، التي سبقت الإشارة إليها فيما سبق من فصول، أضحى فريسة الطرد والتشريد. فخلت المدارس والربط والزوايا من العلماء ومن طلاب العلم. وها هو الرحالة الأندلسي، القاضي أبو بكر ابن العربي، الذي مر بمدينة القدس في رحلته عائداً إلى بلده سنة ٤٩٣هـ/ ١١٠٠م، بعد أن مضى على سقوطها في يد الإفرنج أكثر من عام، يسجل النتائج المأساوية التي أفرزها الاحتلال خلال عام واحد ليس فقط بالنسبة إلى مدينة القدس، بل أيضاً بالنسبة إلى مدن فلسطين والمدن الشامية الأخرى التي عانت مرارة الاحتلال، فيقول: «ولو شاهدتم الشام والعراق في عشر تسعين وأربعمئة، لوجدتم ديناً ظاهراً وعلماً وافراً، وأمناً متسقاً وشملاً منتظماً لا تمكن عبارة منه لبهرة حاله وزهرة كماله. فهبّت عليه من المقادير حَرْجَفٌ من شمائل وجوانب، فتركت الشام كأمس الذاهب، ومحت الإسلام عن المسجد الأقصى.»(١)

امتدت القطيعة بين كل من فلسطين وأهلها وبين الثقافة العربية أكثر من ثمانية عقود جثم خلالها الاحتلال الإفرنجي الصليبي على صدرها. ولمّا أزفت ساعة التحرير سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، واسترد العرب مدينة القدس، انطلق مد الثقافة العربية الإسلامية بعد طول انحباس. فكانت تباشير هذه الانطلاقة تلك المؤسسات التعليمية والثقافية التي أمر السلطان صلاح الدين بإنشائها في مدينة القدس. فكان كل من المدرسة الصلاحية/ الناصرية والخانقاه والبيمارستان النواة الصلبة التي انبثقت منها الحياة الثقافية في بيت المقدس أولاً، ثم في باقي مدن فلسطين لاحقاً. وما إن وقّعت معاهدة الصلح بين الناصر صلاح الدين وملك الإنكليز ريتشارد قلب الأسد، والتي عرفت أيضاً عند بعض المؤرخين باسم صلح الرملة، في شعبان ٥٨٨هـ/ آب (أغسطس) ١١٩٢م، حتى أعطى شارة البدء بإقامة تلك المؤسسات بعد أن رتب أمر تمويلها ونفقاتها بشكل مستديم عن طريق تلك الأوقاف التي حبسها لينفق ريعها عليها.(٢)

بعد موت صلاح الدين ترسّم ملوك بني أيوب وأمراء عساكرهم خطاه، وساروا على نهجه في إنشاء المدارس والربط والزوايا. وبرز بين هؤلاء الملوك، الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، بينما برز من القادة الأمير فارس الدين ميمونِ القصري، وعز الدين الزنجيلي، وحسام الدين الجرّاحي، وبدر الدين الهكاري، وأضرابهم. وكانت معالم هذه النهضة العلمية والعمرانية أبرز ما تجلت في الحرمين الشريفين: بيت المقدس والخليل. لأن حظ هاتين المدينتين من هذه المنشآت كان الأوفر، لا فقط بسبب القداسة التي تمتازان بها من غيرهما من المدن والبقاع، بل أيضاً بسبب استمرارية واستقرار الحكم الأيوبي فيهما قياساً بسيطرته القلقة المتأرجحة على باقي المدن الفلسطينية.[٣]

أحدث التوجه الإسلامي الذي تبناه صلاح الدين أصداء واسعة بين أوساط علماء المسلمين وفقهائهم في مختلف الأمصار الإسلامية، فأخذت أفواج العلماء من القراء والفقهاء والمحدثين والمتصوفة واللغويين والنحاة تتزاحم للالتحاق بالقائد الفاتح كي ينالوا شرف دخول القدس بمعيته. وقد أشار القاضي المؤرخ بهاء الدين ابن شداد إلى هذا الحشد من العلماء الذين شهدوا لحظة الفتح والتحرير فدخلوها مع الداخلين، فيقول في هذا المعنى: «وكان فتوحاً عظيماً شهده من أهل العلم خلق عظيم من أرباب الخِرَق والطُرُق. وذلك أن الناس لمّا بلغهم ما يسّره الله على يده من فتوح الساحل وشاع قصده القدس، قصده العلماء من مصر والشام بحيث لم يتخلف معروف من الحضور.» فصارت مدينة القدس بين عشية وضحاها كأنها خلية نحل، تعج بأهل العلم وطلابه، والكل يشغل وقته بالدرس والتحصيل والإملاء والاستملاء ينهل من ينابيع العلم والمعرفة. وقد رسم العماد الأصفهاني، كاتب السلطان وسكرتيره، صورة معبرة لهذا النشاط، حين ضمّن ذلك في إحدى الرسائل التي بعث بها السلطان إلى الخليفة في بغداد مبشراً بالفتح، إذ يقول: «فما ترى إلاّ قارئاً باللسان الفصيح وراوياً الصحيح، ومتكلماً ومتفحصاً عن مشكلة وموردا لحديث نبوي وذاكراً لحكم مذهبي وسائلاً عن لفظ لغوي أو معنى نحويّ...»[٤]

ويلاحَظ أن النشاط العلمي والثقافي في هذه المرحلة المبكرة من تاريخ فلسطين الأيوبية كان تمحور حول الموضوعات الإسلامية الدينية المحضة، كعلوم القرآن والحديث والفقه وعلوم العربية، لأن هَمّ صلاح الدين كان منصرفاً إلى إعادة تأكيد الهوية الإسلامية لفلسطين في المقام الأول، ومن ثم إلى تأكيد وإعادة ترسيخ مذهب أهل السنّة والجماعة الذي تزعزع بتأثير السياسة المذهبية للفاطميين التي حرصت على إفشاء الفكر المذهبي الإسماعيلي في فلسطين وبلاد الشام، وأحرزت نجاحاً مجزوءاً في بعض المناطق الفلسطينية، كمنطقتي بيسان وطبرية، وبعض نواحي الجليل الأعلى





المحاذي لمنطقة البقاع والجنوب اللبناني، مثلما أحرزت نجاحاً مماثلاً في مناطق الشام الأُخرى، كمناطق حلب واللاذقية وطرابلس وريف جبل اللكام.

وعلى الرغم من خلوص نية الأيوبيين وصدق عزمهم على النهوض بالثقافة الإسلامية وإعادة الوجه العربي الإسلامي إلى مدينة القدس وفلسطين، فإن مجمل ما أنجزوه من منشآت علمية وثقافية لم يكن يوازي حجم طموحاتهم في هذا المجال؛ وظلت منجزاتهم متواضعة تكاد تقتصر على المؤسسات التي أنشأها السلطان صلاح الدين، وتلك التي أنشأها ابن أخيه الملك المعظم عيسى الذي كان ملكاً في الشام وفلسطين. ويستطيع المتتبع لتاريخ أبناء الأسرة الأيوبية في هذه المرحلة أن يرجع قصورهم في تحقيق ما طمحوا إلى تحقيقه إلى أسباب ثلاثة: يتعلق أولها بقصر عمر دولتهم الذي لم يتجاوز ثلاثة أرباع قرن. ويرجع ثانيها إلى العلاقات المتوترة بين ملوك وأمراء هذه الأسرة طوال تلك الأعوام. أمّا ثالث هذه الأسباب فمتصل بمحدودية وضيق الرقعة الجغرافية التي بسطوا نفوذهم عليها في فلسطين، إذ لم تتعد هذه الرقعة بعض المناطق الداخلية من فلسطين، كغزة والخليل والقدس ونابلس، وبعض الأجزاء من الجليل الأعلى، علماً بأن سيطرتهم على هذه البقاع لم تتميز بالاستمرارية التاريخية. وكان تنازلهم عن مدينة القدس لمصلحة الإفرنج الصليبيين أكثر من مرة دليلاً على هشاشة قبضتهم السياسية على هذه البلاد.

## الثقافة والعمران في العهد المملوكي

ورث سلاطين المماليك التوجه الإسلامي الذي وضع السلطان صلاح الدين الأيوبي لَبِنته الأولى. وعلى الرغم من أن كثيراً من جهود السلاطين المؤسسين الأولين كان منصباً على قضايا تحرير بلاد الشام من قبضة الصليبيين، فإنهم لم يدخروا وسعاً في ترسيخ الهوية العربية الإسلامية في فلسطين وبلاد الشام مثلما الحال أيضاً في مصر، فأكثروا من إنشاء المؤسسات العلمية والثقافية والمنشآت التعليمية الإسلامية. فكانت السياسة العمرانية عندهم تسير جنباً إلى جنب مع جهود التحرير، كما تبيّن من المنجزات المميزة التي بذلها الرعيل الأول من السلاطين، كالظاهر بيبرس والمنصور قلاوون الألفي وابنه الأشرف خليل، ثم من بعدهم الناصر محمد بن قلاوون.

ومما يميز النهضة العمرانية / الثقافية في هذا العهد أنها لم تكن مقصورة على السلاطين فحسب، بل ساهم فيها أيضاً نواب السلاطين في فلسطين وبلاد الشام. ونخص بالذكر في هذا الشأن نائب الشام (دمشق)، الأمير تنكز الحسامي، ونائب غزة، الأمير علم الدين سنجر بن عبد الله الجاولي، فقد فاق ما أنجزاه في مضمار

المشاريع العمرانية ما أنجزه السلاطين أنفسهم. ويجب ألاّ نغفل في هذا السياق عن الدور الذي أداه الأمراء المماليك وبعض الأعيان من كبار المحسنين والتجار في إنشاء المؤسسات والمشاريع الخيرية، كالمدارس والزوايا والأسبلة وغيرها من المرافق التي تعود بالنفع على جمهور المواطنين. وكما كان الحال أيام الأيوبيين فقد كرست هذه المشاريع للحرمين الشريفين، القدس والخليل، وإنْ لم تهمل المدن الأُخرى، كصفد وغزة والرملة ونابلس.

كانت المشاريع تتمحور حول توفير الخدمات الحياتية اليومية لأهل المدينة ولكل السكان خارجها؛ ولذلك نراها ذات صلة بتحسين أوضاع معاشهم في أكلهم وشربهم، في صحتهم وأبدانهم، في تعليمهم وعبادتهم. فأنشئت الأسواق والقيساريات، وأقيمت الحمامات والأسبلة، وأجريت مياه الشرب في قنوات مغطاة تصب في أحواض أو برك يسهل على الناس الاستفادة منها. وأقيمت المستشفيات والمصحات الجسمانية والنفسية، وأنشئت الخوانق والربط لإيواء العجزة والضعفاء. وأسست مدارس الصغار على شكل كتاتيب في الأحياء والحارات، وأقيمت المدارس للدراسات المتقدمة للكبار والبالغين لتدرّس فيها العلوم الدينية واللغوية والفقهية. ولتسهيل سفر الناس وضمان تنقلاتهم بنيت الجسور والقناطر والخانات، وأنشئت الزوايا للمتصوفة يمارسون فيها رياضتهم الروحية تقرباً إلى الله، وكذلك الجوامع تسهيلاً لأداء الفرائض الدينية.

## الخدمات التعليمية

### المدارس

ترتبط المدرسة، كمؤسسة للفكر المذهبي السياسي، بوزير السلاجقة نظام المُلْك الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي (٤٥٨هـ/ ١٠٦٥ - ١٠٦٦م)، الذي تولى منصب الوزارة للملك السلجوقي ألب أرسلان ولابنه ملكشاه من بعده خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. وتزامن ظهور مؤسسة المدرسة مع استفحال نشاط فرق الباطنية من الطائفة الإسماعيلية الشيعية، التي كان يديرها داعي الدعاة الإسماعيلي من مقره في القاهرة الفاطمية، والتي كثفت نشاطها الإعلامي الدعائي في العراق وولايات المشرق ترويجاً لفكرها السياسي المذهبي، كخطوة تمهيدية لامتداد الحكم الفاطمي الإسماعيلي في هذا الإقليم. وبيّن الوزير نظام الملك الغرض السياسي الذي توخى تحقيقه عن طريق هذه المؤسسة من خلال جوابه للسلطان ملكشاه حين عاتبه على تبذيره أموال الدولة في الإنفاق على إنشاء هذه المدارس، إذ قال: «يا أبه أنا شيخ أعجمي... وأنت مشتغل بلذاتك منهمك في



شهواتك. وأكثر ما يصعد إلى الله معاصيك دون طاعتك، وجيوشك الذين تعدهم للنوائب إذا احتشدوا كافحوا عنك بسيف طوله ذراعان، وقوس لا ينتهي مدى مرماها ثلاثمئة ذراع... وأنا أقمت لك جيشاً يسمى جيش الليل. إذا نامت جيوشك ليلاً قامت جيوش الليل على أقدامها صفوفاً بين يدي ربهم، فأرسلوا دموعهم وأطلقوا ألسنتهم، ومدوا إلى الله أكفهم بالدعاء لك ولجيوشك. فأنت وجيوشك في خفارتهم وبدعائهم تثبتون وببركاتهم تمطرون وترزقون.»[٥]

كانت شبكة المدارس النظامية تنتشر في عواصم الأقاليم وكبرى مدنها، فذكر أنها أقيمت في: بغداد؛ بلْخ؛ نيسابور؛ هراة؛ أصبهان؛ البصرة؛ مَرو؛ آمُل؛ الموصل. وقيل إن نظام الملك أنشأ في كل مدينة من مدن العراق وخراسان مدرسة من هذا الطراز. وكانت المدرسة النظامية في بغداد أولى المدارس في هذه الشبكة، تولى بناءها رجل يعرف بأبي سعيد الصوفي بعد أن كلفه الوزير نظام الملك ذلك، فبدأ بتشييدها سنة ٤٥٧هـ/ ١٠٦٤ - ١٠٦٥م، وكان الفراغ منها بعد عامين، إذ استهل التدريس فيها. ومن أهم الترتيبات التي روعيت في شبكة المدارس النظامية أن المدرسة كانت توفر الدعم المالي اللازم لكل طالب وطالب ينخرط للدراسة فيها، إذ أطلق مصطلح «المعاليم» (المعلوم) على هذه المخصصات، واعتبرت المدرسة النظامية من هذا القبيل سبّاقة بين كل المدارس التي سبقتها. وشملت هذه المعاليم الجرايات (الرواتب الثابتة والكسوة والنفقات اليومية الجارية)، بالإضافة إلى توفير الخبز والأطعمة لكل طلبة العلم، حتى بات كل حامل علم أو كل طالب علم في بلاد الإسلام، من بيت المقدس غرباً حتى مدينة سمرقند فيما وراء النهر (نهر جيحون) شرقاً، على امتداد مسافة يستغرق قطعها ١٠٠ يوم، مديناً بالفضل لهذه المدرسة.

أمّا المدرسة بمفهومها العادي، بعيداً عن وظيفتها المذهبية الدعائية، فكانت أقيمت قبل عصر الوزير نظام الملك في أكثر من إقليم من الأقاليم الإسلامية. ويحضرنا في هذا السياق بعض المعاهد الخاصة بالدراسات المتقدمة كمؤسسة بيت الحكمة التي تأسست في بغداد أيام الخليفة هارون الرشيد وابنه الخليفة المأمون منذ نهاية القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي. هذا إذا استثنينا مؤسسة الجامع الأزهر في القاهرة التي أنشئت سنة ٣٥٩هـ/ ٩٧٠م. ثم تلا ذلك إنشاء بعض المدارس في الولايات الشرقية من بلاد الإسلام، كمدرسة ابن فورك، وكالمدرستين البيهقية والسعدية في نيسابور.[٦]

ومهما يكن من أمر، فإن سلاطين الأقطار الإسلامية حذوا حذو الوزير نظام الملك في إنشاء هذا النموذج من المدارس التي توفر التعليم المجاني لطلاب العلم مدعومة من خزينة الدولة. وبرز من هؤلاء السلطان نور الدين محمود زنكي الذي

أسس المدارس المماثلة في مدن بلاد الشام، وخصوصاً في دمشق وحلب وحماة وحمص وبعلبك والرحبة ومنبج. ثم اقتفى السلطان صلاح الدين الأيوبي آثار سيده نور الدين محمود زنكي، فأنشأ المدارس التي حملت اسمه في القاهرة والإسكندرية وبيت المقدس.

وعلى غرار ما فعل صلاح الدين، انتهج الملك المعظم مظفر الدين، حاكم أربيل، الإكثار من بناء المدارس ودور الأيتام ودور العجزة والأرامل في ولايته. وبعد موت صلاح الدين صار كل من سياسته العمرانية والتعليمية نموذجاً احتذاه من حكم بعده من أبناء الأسرة الأيوبية، حتى بلغ عدد المدارس التي أنشئت في دولتهم ما يربو على ٢٥ مدرسة انتشرت في مدن المملكة. ولمّا أفضت السلطة إلى السلاطين المماليك، سار هؤلاء على خطى من سبقوهم من ملوك بني أيوب؛ فأنشئت في مصر وبلاد الشام عشرات المدارس والربط ودور الحديث والبيمارستانات. فأحصي في دمشق وحدها ما يناهز ١٢٥ مدرسة، وفي مدينة القدس ما يقارب ٥٠ مدرسة، وفي القاهرة ٨٢ مدرسة. وبعد زوال الحكم المملوكي وقيام الحكم العثماني في فلسطين وبلاد الشام ومصر، انتقلت عدوى العمران إلى سلاطين بني عثمان، وتميز منهم بصورة خاصة السلطان سليمان القانوني.(٧)

## المدارس في فلسطين

المدارس التي يجري الحديث عنها في هذا السياق هي ما يصح أن نسميها اليوم المدارس الثانوية، التي يلتحق الطالب بها بعد أن يكون أنهى مرحلة التعليم الابتدائية أو الإعدادية؛ وهي في بعض الحالات قد تكون في مستوى الكليات المعاصرة، وربما ترقى إلى مستوى الجامعات.

أمّا موضوعات التدريس في تلك المدارس، فكانت لا تخرج عن نطاق الموضوعات الإسلامية التقليدية. إذ كانت تنصب على دراسات القرآن الكريم ومتعلقاتها، كعلم التفسير وعلم القراءات القرآنية. ثم تتسع الدراسة لتشمل صنوف العلم الأُخرى، كدراسة الحديث النبوي والفقه والشريعة والسيرة النبوية وعلم التاريخ. وكانت اللغة العربية وآدابها وعلما الصرف والنحو ترافق مراحل التعليم كلها، لأنها كانت الأداة الأساسية لتعلم جميع العلوم في المدرسة الإسلامية. وكان الفقه الإسلامي خاصة يتناول مدارس الفقه المتعددة التي تشمل مذاهب أهل السنّة والجماعة الأربعة، وعلى رأسها المذهب الشافعي، ثم الحنفي، فالمالكي، فالحنبلي، من دون التطرق، بطبيعة الحال، إلى بعض المذاهب الأُخرى التي كانت أقل شيوعاً والأقل اتباعاً،





كمذهب الأوزاعي الذي كان له حضور ما في بلاد الشام، أو كالمذهب الظاهري الذي ظهر في الأندلس، ثم تفشى بين بعض العلماء في بلاد الشام، وبالتحديد في مدينة دمشق. أمّا المذهب الشيعي، الذي يسمى أيضاً المذهب الجعفري نسبة إلى الإمام العلوي جعفر الصادق، فلم يكن يدرّس في هذه المدارس في فلسطين ومصر وسائر بلاد الشام التي كانت جزءاً من دولة المماليك، في حين أنه كان لا شك يدرّس في العراق وبعض الأجزاء من ولاية المشرق، كبلاد فارس وبلاد ما وراء النهر. وعلى الرغم من هذا الحظر شبه الرسمي على تدريس المذهب الجعفري في مصر وبلاد الشام، فإن بعض المدارس المتقدمة كان يفرد حيزاً كافياً لتدريس هذا المذهب، وينتدب لذلك الشيوخ والعلماء المتخصصين به، كي تكتمل الصورة الفقهية في الإسلام في أذهان طلاب الفقه والشريعة.(٨)

## تمويل المدارس
## ورواتب طواقم التدريس

عادة، يعتمد تمويل المدارس على مصدر دخل ثابت يدر عليها الأموال بشكل مستقل وغير مشروط. وقد تمثل ذلك في الأوقاف التي كان يسجلها المؤسسون ليحبس ريعها على هذه المؤسسة، والتي تغطي النفقات الجارية على المؤسسة ومرافقها المتعددة، بالإضافة إلى تغطية رواتب المدرسين والمعيدين وناظر المدرسة وباقي الموظفين الإداريين، وكذلك المخصصات المالية وغير المالية التي يتقاضاها طلبة المدرسة. فلدى مراجعة كتاب «الأنس الجليل» يجد المرء جرداً بأسماء مدارس مدينة القدس التي كانت أنشئت حتى الربع الأخير من القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، مع تسمية الأوقاف التي حبست على كل مدرسة ومدرسة. وكان تحبيس الأوقاف على المدارس ترتيباً إسلامياً قديماً سبق العهد المملوكي، بل العهد الأيوبي بزمن طويل، كما أنه لم يكن ترتيباً مقصوراً على مدارس مصر وبلاد الشام فحسب، بل كان عاماً في أقطار المسلمين في المشرق أيضاً. وعندما زار الرحالة الأندلسي ابن جبير مدينة بغداد في الربع الأخير من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، أشار إلى هذه الحقيقة، فكتب يقول: «ولهذه المدارس أوقاف عظيمة وعقارات محبّسة، فتصير إلى الفقهاء المدرسين بها، ويجرون بها على الطلبة ما يقوم بهم.» ثم جاءت أقوال ابن بطوطة في القرن الرابع عشر لتؤكد دور الوقف في تمويل المدارس وغيرها من المؤسسات الخيرية في بلاد المشرق وبلاد الشام بصورة خاصة، فيقول في هذا الشأن: «وكل من انقطع بجهة من جهات دمشق، لا بد أن يتأتى له

وجه من المعاش... ومن أراد طلب العلم أو التفرغ للعبادة وجد الإعانة التامة على ذلك.»[٩]

أمّا الرواتب والمخصصات التي كان يتقاضاها المدرسون والمعيدون والطلبة فلم تكن ثابتة، وكانت مقاديرها تتغير بين حين وآخر، أو بين مدرسة وأُخرى. وأورد النويري، في هذا السياق، بياناً تفصيلياً يؤكد حقيقة التغير في مقادير الرواتب التي كان يتقاضاها المدرسون في المدرسة الشافعية في القاهرة. فعند تأسيس هذه المدرسة أيام السلطان الناصر صلاح الدين جعل راتب المدرس ٤٠ ديناراً كل شهر، بينما حدد لناظر المدرسة ١٠ دنانير شهرياً، و٦٠ رطلاً من الخبز في اليوم، بالإضافة إلى راويتين من الماء العذب. واستمر الحال على هذا المنوال حتى شغرت وظائف التدريس في المدرسة في سنة ما ولأسباب غير معلومة، إذ ظلت شاغرة ٣٠ عاماً، استعيض خلالها عن المدرسين بعشرة من المعيدين. وفي سنة ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩ - ١٢٨٠م، استؤنف تعيين المدرسين، فانتدب لهذه المهمة أحد القضاة المتقاعدين، وتقرر أن يكون راتبه الشهري ٢٠ ديناراً، أي نصف الراتب الذي كان أقره مرسوم السلطان صلاح الدين. ولمّا تولى السلطان قلاوون الألفي الحكم عيّن الشيخ الفقيه برهان الدين السنجاري لوظيفة التدريس والنظر في ذلك سنة ٦٨٢هـ/ ١٢٨٤م، ثم رسم بأن يكون معلومه (راتبه الشهري) ربع ما كان رسمه السلطان صلاح الدين. وفي موضع آخر، يرسم الحافظ المؤرخ ابن كثير الدمشقي صورة لأحوال الرواتب لكل من المدرسين والمعيدين والطلبة في إحدى مدارس دمشق في القرن الرابع عشر (٧٦٧هـ/ ١٣٦٥ - ١٣٦٦م). ويتبين من هذا التقرير أن راتب المدرس لم يكن يتجاوز ١٠ دنانير، وبالتحديد ٨٠ درهماً في الشهر، بينما بلغ راتب المعيد ٢٠ درهماً، وتدنى معلوم الطالب الشهري حتى بلغ ١٠ دراهم فقط.[١٠]

من خلال هاتين العينتين عن وضع الرواتب التي كان يتقاضاها المدرس في مدارس القاهرة ودمشق، بل في مصر وبلاد الشام عامة، نلاحِظ تراجعاً لافتاً للنظر في حجم رواتب المدرسين والمعيدين ومخصصات الطلبة، وكان النقص كبيراً بحيث وصل إلى ربع الراتب الأصلي الذي كان يدفع أيام السلطان صلاح الدين. أمّا في مدارس دمشق فإن التراجع كان أكثر بحيث هبط الراتب عن مستوى ربع الراتب الأصلي.

## انعكاسات تدني رواتب التدريس

لعل تدني رواتب التدريس وبشكل مطرد كان وراء تفشي ظاهرة التدريس في أكثر من مدرسة في آن واحد، إذ لم يعد الراتب الذي يتقاضاه المدرس يكفي لمؤونته





ومؤونة عياله، بل ربما لم يعد كافياً للحفاظ على مستوى الحياة التي اعتادها بعض المدرسين. وسجلت الحوليات والمصادر وبعض التراجم بعض الأمثلة التي تعكس وجود هذه الظاهرة بين ظهراني المدرسين. على سبيل المثال، كان الحافظ الفقيه أبو سعيد خليل بن كيكلدي العلائي يدرّس في المدرسة الصلاحية والمدرسة التنكزية في مدينة القدس في الوقت نفسه، واستمر في ذلك إلى أن توفي وهو يشغل الوظيفتين معاً. وإذا لم تكن الفرصة سانحة للعمل في أكثر من مدرسة في المدينة نفسها، كان بعض المدرسين يضطر إلى العمل في مدرستين في مدينتين في آن واحد. وهذا ما حدث مع الفقيه فخر الدين ابن عساكر الذي كان يدرّس في المدرسة الصلاحية في القدس، وفي المدرسة التقوية في دمشق؛ ولذلك فإنه كان مضطراً إلى توزيع إقامته بين المدينتين كي يستطيع الاستمرار على رأس عمله فيهما. وإذا لم يتح للبعض فرصة التدريس في مدرستين، فإنه كان يشغل وظيفة أُخرى غير وظيفة التدريس، وكان مثل هذه المزاوجة بين وظيفة التدريس ووظيفة أُخرى يحدث بين الحين والآخر لبعض المدرسين في مدينة بيت المقدس، وخصوصاً وظيفة الخطابة، إذ كان القاضي ابن جماعة يدرّس في المدرسة الصلاحية، ويتولى، في الوقت نفسه، وظيفة الخطابة في المسجد الأقصى.[١١]

## نواب التدريس والمعيدون

اعتاد بعض المدرسين الكبار ممن كان ينتدبهم السلاطين للتدريس في المدرسة الصلاحية في القدس، التلكؤ في التوجه إلى المدينة لمباشرة عملهم هناك، واعتادوا عوضاً عن ذلك إرسال من ينوب عنهم في مباشرة هذه الوظيفة. فعندما انتدب السلطان فرج بن برقوق الشيخ زين الدين أبي بكر القمني للتدريس في المدرسة الصلاحية في القدس ظل مقيماً بالقاهرة لم يبرحها إلى مدينة القدس، لكنه أناب عنه التدريس فيها الشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد الهايم، الذي استمر يدرّس بالنيابة إلى سنة ٨١٥هـ/ ١٤١٢ - ١٤١٣م، وظل إلى حين قدم الأمير نوروز، نائب دمشق، إلى القدس وعيّن للتدريس في المدرسة الشيخ الهروي بدلاً من القمني المذكور.[١٢]

لم تكن عملية التدريس مقصورة على المدرسين فقط، بل كان لكل أستاذ عدد من المساعدين يقل أو يكثر تبعاً لعدد طلابه وتعدد الموضوعات التي يقوم بتدريسها. وكان يطلق على هؤلاء المساعدين مصطلح المعيدين، وهو يحمل إلى حد كبير، بل إلى درجة التطابق، المعنى نفسه الذي يحمله مصطلح المعيد في الجامعات ومعاهد العلم المعاصرة. فكان المعيد يتولى مهمة الشرح وتفسير المحاضرة التي يلقيها

المدرس على طلابه، كما كان يزيل سوء الفهم الذي قد يعرض لبعض الطلبة وتسهيل استيعابهم للمفاهيم والصيغ الاصطلاحية المركبة، ثم يقوم بعملية إرشاد ببليوغرافية يحيلهم خلالها على مراجع ذات صلة بموضوع المحاضرة. ولمّا كان موضوع الفقه الإسلامي في المدارس يتناول مدارس الفقه الأربع، على مذاهب الشافعي والمالكي والحنفي والحنبلي، فقد خص كل مذهب منها بمدرس متخصص بأحكام هذا المذهب أو ذاك، وكان ذلك يقتضي أن يكون لكل مذهب معيد، أو عدد من المعيدين يعنون بشؤون الطلبة المتخصصين بدراسة هذا المذهب.

كانت وظيفة المعيد وظيفة رسمية سلطانية، فالسلطان هو صاحب الصلاحية في التعيين والعزل. وكان بعض أجنحة المدرسة يخصص لسكن المعلمين والمعيدين والطلبة، وكانت إقامة هذه الكوادر وتغطية تكاليفها جزءاً من الخدمات التي تقدمها المدرسة مجاناً لا تتقاضى عليها أجراً.[١٣]

## مدارس المدن الفلسطينية

كانت أغلبية المدارس التي أنشئت في المدن الفلسطينية قامت في إبان العهد المملوكي، وثمة عدد محدود فقط لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة يرجع إلى العهد الأيوبي. كما أن مدينة القدس هي التي استحوذت على اهتمام السلاطين في هذا الصدد. ويعود الفضل في معرفة أسماء هذه المدارس وأسماء مؤسسيها وتاريخ إنشائها إلى المؤرخ المقدسي الفلسطيني مجير الدين الحنبلي العليمي وإلى كتابه الوثائقي «الأنس الجليل»، الذي فرغ من تأليفه في أواخر القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي (٩٠٠هـ/١٤٩٥م). واعتماداً على ما أورده هذا المؤرخ، فقد أحصى الباحث الشامي محمد كرد علي ٤٥ مدرسة كانت في مدينة القدس داخل الأسوار، بالإضافة إلى ٩ مدارس أُخرى كانت أنشئت في محيط المدينة خارج الأسوار. أمّا الباحث الفلسطيني خليل طوطح فأحصى ٤٩ مدرسة، وأحصى الباحث سهيل زكار ٣٦ مدرسة فقط، فضلاً عن المؤسسات الأُخرى التي كانت تقدم نوعاً آخر من الخدمات التعليمية، كدور القرآن والحديث والخوانق والزوايا والربط، والتي بلغت بضع عشرة مؤسسة.[١٤]

ولمّا كان اهتمام مجير الدين العليمي منصباً على بيت المقدس، فإنه صرف النظر عن المدارس والمنشآت التي أقيمت في مدن فلسطين الأُخرى والتي كانت عامرة في عصره. فأسعفتنا مصادر وحوليات غير «الأنس الجليل» بمعلومات قيّمة عما كان في بعض هذه المدن من مدارس أو مؤسسات دينية شبه تعليمية. وفي هذا الصدد،



ذُكرت في مدينة نابلس مدرستان: أسس الأولى الشيخ عبد الحافظ بن بدران بن شبل المقدسي المتوفى في نهاية القرن الثالث عشر (١٢٩٨). أمّا المدرسة الثانية فأسسها القاضي فخر الدين محمد بن فضل الله، الذي كان يشغل وظيفة ناظر الجيوش في الديار المصرية. وكان ابن فضل الله هذا نصرانياً من أقباط مصر اعتنق الإسلام وحسن إسلامه، وكان يكثر الزيارة للحرم القدسي، وعرف عنه إكثاره من المشاريع الخيرية في مصر وبلاد الشام والتي كان من جملتها المدرسة التي نسبت إليه في مدينة نابلس.[١٥]

أمّا في صفد فقد ذكرت المدرسة التي أنشأها الأمير سيف الدين أرقطاي بن عبد الله المنصوري الذي كان تولى منصب النيابة فيها خلال السنوات ٧١٨ - ٧٣٦هـ/١٣١٨ - ١٣٣٦م، في إبان السلطنة الثالثة للسلطان الناصر محمد بن قلاوون. ووردت إشارة عند ابن قاضي شهبة إلى مدرستين أُخريين في صفد هما المدرسة الشهابية والمدرسة الشمسية، لم تفصح الرواية عن اسم مؤسسيهما أو تاريخ التأسيس.[١٦]

وأورد الرحالة المغربي ابن بطوطة ما يشير إلى وجود مدارس في كل من مدينة غزة والخليل، وكان التقى عندما زار المدينتين بعض المدرسين فيها.[١٧]

## الخوانق والزوايا والربط

حفلت مدينة القدس في إبان هذه الحقبة من تاريخ فلسطين بمؤسسات دينية - خيرية، ساهمت في إرساء وتعميق التوجه الثقافي الإسلامي الذي اعتمده ملوك الأسرة الأيوبية ومن بعدهم السلاطين المماليك، والذي شكّل محوراً من محاور السياسة السلطانية الرسمية. لأن مثل تلك المؤسسات، وعلى الرغم من طابعه الديني الخيري، قام بدور تعليمي تثقيفي صار رديفاً للمدارس في تحقيق تلك السياسة وتوكيدها. وكانت الثقافة الدينية بلبوسها التصوفي هي التي استحوذت على نشاط هذه المؤسسات، بعد أن باتت ثقافة التصوف سمة العصر في مشرق العالم الإسلامي منذ مطلع القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي. فكانت الخوانق والزوايا والربط هي المؤسسات التي رفعت راية هذه الثقافة. وكانت بداية ظهورها في ولاية خراسان وترانس - أُكسانيا التي سمّتها الرواية العربية التاريخية/الجغرافية بلاد ما وراء النهر. وقد تأثر الطابع المميز لهذه المؤسسات إلى حد كبير بالتقاليد الدينية المحلية التي كانت تسود هذه الأقطار، ولا سيما التقاليد التي تميز الطقوس الدينية لدى أبناء العقيدة المانوية، أو بالأحرى تلك الطقوس التي يمارسها الزهاد من فرقة الكرّامية.[١٨]

ومع التمدد السياسي لنفوذ ملوك السلاجقة غرباً، وصلت هذه الظاهرة إلى بلاد

الشام، حيث أنشئت أولى الخوانق في أمهات المدن وخصوصاً في حلب ودمشق. وعندما تأسست الدولة الزنكية في أعقاب انهيار الإمارات السلجوقية في بلاد الشام ازداد النشاط لإنشاء المزيد منها. ولمّا قامت الدولة الأيوبية أحدث السلطان صلاح الدين نقلة نوعية جعلت من هذه المؤسسات الصوفية مؤسسات رسمية؛ إذ صارت الدولة، ممثلة بالسلاطين أو نوابهم في أقاليم البلاد، هي التي تبادر إلى إنشائها وتعيين شيوخها وإدارييها من النظّار. فقام السلطان صلاح الدين بإنشاء أول خانقاه في القاهرة، بعد أن قوض السلطة السياسية للفاطميين وألحق القطر المصري وأعاده إلى أحضان الخلافة السّنية العباسية في بغداد، بعد أن صارت مصر جزءاً من مملكة نور الدين زنكي.

عرفت الخانقاه الأولى في القاهرة باسم الخانقاه الصلاحية، على اسم مؤسسها صلاح الدين، ثم غلب عليها اسم خانقاه سعيد السعداء، لأنها أقيمت في الدار التي كان يملكها أحد كبار الموظفين في الدولة الفاطمية، عتيق الخليفة المستنصر، والذي اشتهر بلقبه سعيد السعداء. ويقول المقريزي في خبر إنشاء هذ الخانقاه: «فلمّا استبد الناصر صلاح الدين... بملك مصر بعد موت الخليفة العاضد... عمل هذه الدار برسم الفقراء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة ووقفها عليهم في سنة ٥٦٩ [١١٧٣ - ١١٧٤م]. وولّى عليهم شيخاً ووقف عليهم بستان الحبّانية.» ثم أردف مشيراً إلى أنها كانت أولى الخوانق في مصر.[١٩]

ولمّا تم تحرير مدينة القدس من قبضة الصليبيين، جعل صلاح الدين من مثل هذه المؤسسات ركيزة أساسية في سياسته لإعادة الهوية الإسلامية إلى مدينة القدس والأجزاء الأُخرى المحررة من فلسطين، بعد أن كانت الهوية العربية الإسلامية غيبت عن فلسطين، وخصوصاً عن مدنها، في إبان فترة الاحتلال الإفرنجي الصليبي. فبالإضافة إلى المدرسة الصلاحية، ذائعة الصيت، التي أنشأها في مدينة القدس، أمر بإنشاء أول مؤسسة صوفية في المدينة، في الدار التي كانت تعرف باسم دار البترك على مقربة من كنيسة القيامة، وصارت هذه المؤسسة تعرف باسم الخانكاه الصلاحية أو الرباط الصلاحي، إذ يترادف اللفظان في مصطلح ذلك العصر، وقرر في الوقت نفسه أن يوقف أوقافاً للإنفاق عليها.[٢٠]

شكلت الخانقاه الصلاحية نقطة الانطلاق في ترسيخ الثقافة الصوفية الإسلامية في فلسطين، بل صارت النموذج الذي حذا حذوه ملوك الأسرة الأيوبية ومن تلاهم في حكم فلسطين وبلاد الشام من سلاطين المماليك؛ يؤكد ذلك ما أورده صاحب كتاب «الأنس الجليل»، الذي ذكر أسماء ٢٨ زاوية و٨ رُبط وخوانق اثنتين أُخريين. لكن القوائم التي أوردها المؤرخ مجير الدين العليمي، لم تشمل كل المؤسسات الصوفية





في مدينة القدس، إذ إن ٩ رُبط أُخرى كانت قائمة في المدينة ورد ذكرها في وثائق الحرم الشريف. كما ذكرت أسماء أُخرى لخوانق لم يذكرها العليمي، كالخانقاه التنكزية التي كانت ملحقة بدار الحديث التي تحمل اسم الأمير تنكز، وأيضاً الخانقاه المنجكية على اسم منشئها الأمير سيف الدين منجك العلائي الذي كان يتولى نيابة صفد، وخانقاه ثالثة أمر بتأسيسها السلطان حسن ابن الناصر محمد.[٢١]

## المؤسسات الصوفية وطبيعة خدماتها

كانت هذه المؤسسات على اختلاف أنواعها ومسمياتها، كما أسلفنا، تعبيراً عن التوجه الإسلامي الذي تبناه سلاطين المسلمين في هذه الحقبة من التاريخ. بل كانت هي الوسيلة المثلى لاحتضان شيوخ الصوفية العارفين وغيرهم من أولياء الله وأصحاب الكرامات ممن أشادت بفضلهم التقاليد الدينية الإسلامية، فكانت لهم الحظوة عند الخاصة والعامة، ونالوا احترام الحكام والشعب على حد سواء. ولذلك صار السلاطين والأمراء وأصحاب النفوذ يهيئون لهؤلاء وأضرابهم تلك الزوايا والربط والخوانق، يقيمون بها ويقدمون خدماتهم لمريديهم وروادهم ممن يسعون للانتفاع ببركتهم. وبالإضافة إلى هذه المنشآت التي وضعت في تصرفهم، كان السلاطين يخصونهم بالرواتب النقدية ويغدقون عليهم ما يحتاجون إليه من متاع ومؤن تنفعهم في ملبسهم ومأكلهم ومشربهم. ليس هذا فحسب، فإن هذه المؤسسات كانت توفر لكل من يلوذ بها كل الخدمات الأساسية التي يحتاج إليها الإنسان في حياته اليومية. ولذلك ضمت المباني المخصصة لهذه المؤسسات الحمامات والمطابخ والأفران.

ولضمان استمرارية الخدمات التي تقدمها المؤسسة درج المؤسسون على تحبيس الأوقاف عليها، فكان ريعها السنوي يخصص لتغطية النفقات الثابتة والجارية عليها وعلى المقيمين بها. وبسبب طبيعتها الخيرية، كمؤسسة للبر والإحسان، كانت مفتوحة أمام جميع فئات الناس الفقراء والضعفاء، وكانت مأوى يلجأ إليه العجزة وفقراء الصوفية والغرباء، الذين انقطعت بهم السبل، وأبناء السبيل. ولم تكن هذه المؤسسات مقصورة على الرجال فحسب، بل كانت ملاذاً تأوي إليه النساء كذلك. إذ جعل بعضها للنساء خاصة، وكان يتولى مشيختها امرأة شيخة كي تصلح لاستقبال الأرامل والمهجورات والمطلقات من النساء، فتمكث الواحدة منهن في المؤسسة حتى تجد زوجاً أو تعود إلى حضن الزوجية إن كانت مهجورة. وقد أشار المقريزي إلى رباطين في مدينة القاهرة خصصا لهذه الغاية، هما رباط البغدادية ورباط الست. وكانت الطاقة الاستيعابية لهذه المؤسسات تختلف بحسب كبر مساحة المؤسسة أو صغرها. فكان

عدد نزلاء خانقاه سعيد السعداء في القاهرة لا يقل عن ٣٠٠ رجل. ومع مرور الزمن تحولت مؤسسة الخانقاه/ الزاوية/ الرباط إلى مؤسسة رسمية، فلكل مؤسسة شيخ من أهل التصوف يضعه السلطان على رأس المؤسسة يسمى شيخ الشيوخ، وكانت المؤسسة عادة تحمل اسم هذا الشيخ. وكان لكل منها مسؤول إداري يسمى الناظر يعيّنه السلطان، وكان هناك موظف آخر يوكل إليه ترتيب طقوس الذكر التي تقام كل أسبوع.

أمّا المؤسسات الكبرى فكانت متعددة الأغراض، تقدم أنواعاً متنوعة من الخدمات، ففيها غرف للسكن والإقامة مع ما يلحق بها من خدمات ومنافع. وفي كل مؤسسة كان هناك خلوة يجلس فيها شيخ الشيوخ. وكان في بعضها قبة ومنارة للأذان وإقامة الصلاة، وكذلك مرافق للموتى. أمّا الجانب التعليمي الذي كانت تؤديه هذه المؤسسات فتمثل في وجود مدرسة داخلها، وكان السلطان يعيّن فيها مدرساً بوظيفة رسمية، عنده عدد من الطلاب كانوا يتلقون العلم مجاناً ويمنحون راتباً شهرياً نقداً وعيناً، على غرار طلاب المدارس العادية في ذلك العصر.(٢٢)

## الترب والمشاهد والمزارات

كان هذا النوع من المؤسسات يساهم، لكن بشكل متواضع، في نشر الثقافة الإسلامية. وكانت التربة عبارة عن مبنى مقبب يقيمه أحد السلاطين أو الأمراء ليكون مدفناً له وأحياناً له ولأسرته. وبسبب مركزية القبة في الهيكلية الهندسية لهذا المبنى، فإنها صارت اسماً مرادفاً للتربة. وقد يكون حجم مبنى التربة كبيراً، بل ضخماً، يشتمل على عدد كثير من الأجنحة الفخمة التي اعتاد بعض السلاطين الإقامة بها أحياناً مصحوباً بحاشيته ومرافقيه وحرسه، فيمضي فيها عدة ليال. وهناك أجنحة أُخرى ملحقة بهذا المبنى تشتمل على المرافق اللازمة لنزول السلطان وإقامته. وكما كان هناك ترب خاصة بالسلاطين، فقد اعتاد بعض كبار الأمراء إنشاء ترب خاصة بهم، وأنشأ بعض السلاطين ترباً خاصة لأمهاتهم أو لبعض زوجاتهم. وبسبب كبر حجم بعض الترب واتساع مرافق الخدمات المشتملة عليها، ومن ثم كثرة الأوقاف المحبوسة عليها، فقد أوكلت مسؤولية الإشراف عليها إلى قاضي القضاة الذي يصدر مرسوم سلطاني بتعيينه.

ومن سلاطين بني أيوب الذين كانت لهم ترب كهذه، ذكرت تربة السلطان صلاح الدين وتربة ابن أخيه ملك بلاد الشام المعظم عيسى، وكانتا في مدينة دمشق. وهناك تربة أيوبية ثالثة في القاهرة للسلطان الصالح نجم الدين أيوب. ومن سلاطين المماليك ذكرت تربة الظاهر بيبرس، وتربة المنصور قلاوون من السلاطين الأتراك،





ومن السلاطين الجراكسة ذكرت تربة كل من الظاهر برقوق، والناصر فرج بن برقوق، والأشرف برسباي، ويلبغا الناصري.

كان إنشاء الترب تقليداً قديماً سبق العهدين الأيوبي والمملوكي، لكن لم يكن مقصوراً على رجال الدولة كما كان عليه الحال في هذه الحقبة، بل كان يخص المتوفين من جلة العلماء والفقهاء وأقطاب الصوفية. لذلك رأى الناس في الترب نوعاً من المزارات يقصدونها تلمُّساً للبركة. وبالإضافة إلى ذلك فهي مفتوحة أمام فئات أُخرى من أعيان المسلمين وعلمائهم، ولم تكن مقصورة على عالم أو فقيه أو وليّ بعينه.(٢٣)

عادة، يرتب في الترب طواقم من قراء القرآن يتناوبون على التلاوة، ففرقة بالليل وفرقة بالنهار، وكان القراء يتقاضون راتباً شهرياً أجراً على ذلك. كما كان في التربة إمام ومؤذن يتقاضى كل واحد منهما راتباً جارياً. وكانت تجري فيها عملية تدريس منتظمة لبعض الموضوعات ذات الصلة بالدين، كموضوع تفسير القرآن والحديث النبوي الشريف، ويرتب لكل موضوع مدرس ومعيد، ويتقاضى الطلبة المعلوم الشهري الذي جرى إنفاقه على طلبة العلم في المدارس الرسمية. كما زودت التربة بخزانة كتب (مكتبة) تضم رفوفها كتباً وكراريس في مختلف العلوم الدينية واللسانية، ولهذه المكتبة خازن (أمين مكتبة) وخدام. وكانت مجموعة كبيرة من العاملين تعمل في التربة من أجل الصيانة وتسيير كل مرافقها، ففيها القيّم والفراشون والبوابون والحراس، ولكل منهم راتب يتقاضاه لقاء عمله.(٢٤)

## الترب في فلسطين

على غرار هذا النموذج من الترب السلطانية في العهد المملوكي، أنشئ في بعض مدن فلسطين عدد منها، كان القسط الأوفر قائماً في بيت المقدس، وأورد المؤرخ الفلسطيني مجير الدين العليمي ذكر ٨ ترب. ويرجع تاريخ أقدم الترب في مدينة القدس إلى عهد الملك الأيوبي المعظم عيسى، ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب، شقيق السلطان صلاح الدين. وكان أوقف هذه التربة القائد المجاهد بدر الدين محمد بن أبي القاسم الهكاري، أحد أمراء العساكر في جيش المعظم عيسى، سنة ٦١٠هـ/١٢١٣ - ١٢١٤م، وخصصها لفقهاء الشافعية. ولمّا رزقه الله الشهادة في الغارة التي شنها الصليبيون على منطقة نابلس في وقعة الغور سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م، حُمل إلى بيت المقدس ودفن في تربته تلك. أمّا التربة الثانية فيسميها العليمي التربة الأوحدية على اسم واقفها الأمير الأيوبي، الملك الأوحد نجم الدين يوسف، حفيد الملك المعظم عيسى، ويعود تاريخ وقفها إلى سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧ - ١٢٩٨م، وكانت

عند باب حطة. وأمّا الثالثة فهي التربة الجالقية، وهي عند رأس درج العين بباب السلسلة، وكان أوقفها الأمير ركن الدين العجمي الذي كان يلقب بالجالق، ودفن فيها سنة ٧٠٧هـ/ ١٣٠٧ – ١٣٠٨م. وكانت التربة الرابعة هي التربة السعدية بباب السلسلة أيضاً، على اسم واقفها الأمير سعد الدين مسعود الذي كان تولى وظيفة الحجابة في دمشق، ويعود تاريخ وقفها إلى سنة ٧١١هـ/ ١٣١١ – ١٣١٢م. وعرفت التربة الخامسة باسم التربة الكيلانية على اسم أحد أمراء المشرق الذي اشتهر باسم الصاحب كيلان، فأوصى قبل موته بأن يقتطع من ثلث ماله مبلغ ١٠٠,٠٠٠ درهم فضة، وبأن يشترى بالمبلغ قطعة أرض تقام عليها هذه التربة، وأوصى بأن يدفن فيها، فتولى ذلك أحد أبناء أخيه. وتمت إقامة التربة في الجانب الغربي من المدرسة الطازية، وكانت هذه الوصية كتبت سنة ٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م. ونقل كيلان هذا بعد موته ودفن في تربته في مدينة القدس. وفي سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢ – ١٣٨٣م، أوقف الأمير المملوكي طشتمر العلائي التربة التي تحمل اسمه، وكانت بالقرب من التربة الكيلانية، ثم دفن فيها، وهي التربة السادسة. أمّا التربة السابعة فقد أوقفها الملك المغولي المسلم حسام الدين بركة خان فعمرت بعد وفاته في مقابل المدرسة الطازية. وذكر العليمي تربة ثامنة باسم التربة المهمازية التي أوقفها الأمير ناصر الدين المهمازي، ولم يقف المؤلف على تاريخ وقفها أو سنة عمارتها، وأشار إلى أنها تحولت إلى دار سكنية ولم تظل تربة كغيرها من الترب في أيامه.

ذكر ابن تغري بردي تربة أُخرى في مدينة القدس نسبت إلى الأمير أرغون الكاملي. وكان الكاملي من مماليك الملك الصالح إسماعيل ابن السلطان الناصر محمد بن قلاوون، ثم صار بعد ذلك من خاصة الكامل ابن السلطان الناصر محمد ونسب إليه. وتولى منصب النيابة في كل من حلب ودمشق، ثم تحول أميراً بطالاً في آخر أيامه ودفن في التربة التي أنشأها سنة ٧٥٨هـ/ ١٣٥٦ – ١٣٥٧م في مدينة القدس.[٢٥]

وفي مدينة صفد أشار بعض المصادر إلى تربة عمّرها الأمير أرقطاي القفقاجي الذي اشتهر بلقب الحاج، وهو أحد الأمراء الذين تولوا نيابة السلطنة في مملكة صفد. وكانت هذه التربة مجاورة للمسجد الظاهري الذي عمّره السلطان الظاهر بيبرس عند تحرير المدينة. وتحدث ابن بطوطة عن تربة كبيرة في مدينة الخليل تنسب إلى النبي لوط، ابن شقيق إبراهيم الخليل عليه السلام، ولدى معاينتها عندما زار المدينة، ذكر أنها مبنية على تل مرتفع شرقي الحرم الإبراهيمي يطل على غور الأردن، وأن الضريح يتوسط مجموعة من المباني الحسنة في وسط غرفة مبيّضة، وأن القبر مكشوف لا ستور عليه.[٢٦]





## المشاهد والمزارات

قد يطلق مصطلح المشهد على التربة، كونه لفظاً مندرجاً ضمن مرادفاتها. لكنه يختلف عن التربة، أولاً لأنه بالضرورة أكبر حجماً وأكثر سعة منها، وثانياً لأنه لا يقتصر على ضريح صاحبه فحسب، بل يتسع أيضاً ليشتمل على كثير من أضرحة الوجهاء والأعيان في مجالات السياسة والحكم والعلم والفقه وغير ذلك، وثالثاً هو كثير القباب ولا يقتصر على قبة واحدة كما هو الحال في التربة. وكانت المشاهد الكبرى عادة تحاط بسور له باب يوكل إلى بواب وحراس فلا يفتح إلاّ بإذنهم. وداخل السور توجد الأضرحة والمباني المشمولة بذلك المشهد، وكانت تقوم من حول باحة فسيحة تفصلها عنها الأروقة الضخمة القائمة على أعمدة وقناطر وأقواس، وتشتمل المباني على غرف وقاعات فيها مختلف الأضرحة. ولعل فيما ذكره المؤرخ ابن الأثير عن مشهد باب التبن في بغداد سنة ٤٤٣هـ/ ١٠٥١ – ١٠٥٢م، بسبب الفتنة التي نشبت بين الشيعة والسّنة والتي أسفرت عن احتراقه، ما يزودنا بصورة واضحة للمشهد، الذي اشتمل على أضرحة لأئمة الأسرة العلوية، ولبعض خلفاء وأمراء الأسرة العباسية؛ إذ كان فيه ضريح الخليفة الأمين، وضريح والدته زبيدة بنت جعفر زوجة هارون الرشيد، وضريح جعفر ابن الخليفة المنصور، وقبر موسى بن جعفر وغيره من أمراء وأعيان الهاشميين. كذلك كان في المشهد أضرحة لملوك الأسرة البويهية، كضريح معز الدولة، وجلال الدولة بن بويه، بالإضافة إلى أضرحة بعض الوزراء. وربما أقيم إلى جانب المشهد جامع كما كان حال الجامع الذي أقيم في جوار مشهد الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان في بغداد.[٢٧]

وفي فلسطين عُرف بعض المشاهد والمزارات، وذكر الرحالة ابن بطوطة شيئاً عنها، فأشار إلى مشهد في مدينة القدس كان يعرف بـ «مصعد عيسى» عليه السلام، وذكر أنه بناء قائم على تلة شرقي القدس. وذكر قبراً يزار لامرأة صالحة تعرف باسم رابعة البدوية، ويبدو أن الناس في زمانه كانوا يخلطون بين هذه الشيخة الصالحة وبين سميتها التي اشتهرت كأحد أعلام النساء الصوفيات وهي المعروفة باسم رابعة العدوية. ولذلك أكد هذا الرحالة أن المقصودة بصاحبة المشهد هي البدوية لا العدوية. ثم أشار كذلك إلى مشهد الحسين بن علي في مدينة عسقلان، التي كانت خربة في أثناء زيارته، كما أشرنا إلى ذلك في فصول سابقة أعلاه. فقال ابن بطوطة إنه مشهد يزار للتبرك به، ولهذا السبب يسميه في موضع آخر من كتابه مزار الحسين. وكان مزار الحسين هذا داخل مسجد عظيم شاهق العلو، كان أمر ببنائه أحد الخلفاء الفاطميين. وكان يوكّل إلى قيّم يتقاضى راتبه من خزينة السلطان، ويستفيد من الصدقات التي يتصدق بها زوار المشهد.

وذُكر أنه كان في الخليل مشهد عرف باسم مشهد فاطمة، وهي فاطمة بنت الحسين بن علي، أخت سكينة بنت الحسين ذائعة الصيت. وبالإضافة إلى وظيفة قيّم المزار التي كانت وظيفة رسمية سلطانية، كان في بعض المشاهد موظفون رسميون آخرون من أجل الصيانة وتقديم الخدمات للزوار المتبركين. وأورد المؤرخ المملوكي ابن الجيعان ذكراً لبعض المزارات الأُخرى في أجزاء من الساحل الفلسطيني، منها مزار الشيخ إبراهيم المتبولي في أسدود شمالي عسقلان، ومشهد الصحابي الكبير أبي هريرة في قرية يبنى، ومزار الصحابي سلمان الفارسي على مقربة من مدينة صفد. وأورد بعض المصادر ذكراً لمزارات أُخرى هي: مزار النبي يونس عليه السلام بالقرب من مدينة الخليل؛ مزار المجاهد الأمير بدر الدين الهكاري الذي تحول قبره مزاراً لدى الأجيال التالية؛ مزار الشيخ الصوفي علي بن عليم، الذي بني على قبره مشهد كبير قرب أرسوف الساحلية يتولى الإشراف عليه قيّم يعيّنه السلطان؛ مزار الشيخ الصالح إبراهيم الهدمة فيما بين القدس والخليل؛ مزار الشيخ أبي ثور في ضاحية القدس المملوكية. قبل الفتح الصلاحي كان هذا المزار داخل دير قديم أطلق عليه البيزنطيون اسم دير القديس ماركوس، ثم جعل الدير بعد أن تعرض للخراب على اسم الشيخ أبي ثور، بعد أن أوقف السلطان صلاح الدين الدير الخرب والقرية المجاورة على هذا المشهد الواقع خارج أسوار مدينة القدس في جهة الغرب شمالي قرية البقعة. وهي بالتأكيد ما صار يعرف باسم حي البقعة الذي احتل منذ سنة ١٩٤٨ وهجّر أهله، وصار جزءاً من الأحياء الإسرائيلية في مدينة القدس بعد النكبة. أمّا قبر النبي موسى عليه السلام فكان مزاراً على الطريق بين القدس وأريحا، وكان بني الضريح والمشهد في عهد السلطان الظاهر بيبرس.[٢٨]

## المنشآت الصحية في فلسطين/ المستشفيات

اشتملت كل المدن الفلسطينية الآهلة بالسكان، ومن دون استثناء، على مستشفى واحد على الأقل في الحقبة المملوكية. وكانت هذه المستشفيات توفر الخدمات الصحية والعلاجية المجانية للناس جميعاً، للغني منهم وللفقير. أمّا وجود المستشفيات في العهد الأيوبي، فاقتصر على مدينة القدس من دون غيرها، لأن بقية مدن فلسطين كانت إمّا مدمرة وإمّا لا تزال ترزح تحت نير الاحتلال الصليبي.

ومن الجدير بالذكر في هذا السياق أن تاريخ إنشاء المستشفيات في فلسطين لا يرتبط بقيام الحكم الأيوبي، وإنما سبق ذلك بأكثر من قرن ونصف قرن على الأقل، إن لم يكن أكثر كثيراً من ذلك. فعندما زار الرحالة الفارسي المسلم، ناصر خسرو،



فلسطين، سنة ٤٣٩هـ/١٠٤٧ - ١٠٤٨م، وقبل ما يقرب من نصف قرن قبل الغزو الصليبي، شاهد مستشفى في مدينة القدس ووصفه بالكبر والضخامة، فكتب يقول: «وفي بيت المقدس مستشفى عظيم عليه أوقاف طائلة، يصرف لمرضاه العديدين العلاج والدواء، وبه أطباء يأخذون مرتباتهم من الوقف. وهذا المستشفى ومسجد الجماعة يقعان على حافة وادي جهنم.»[٢٩] ولم تختفِ الخدمات الصحية، بل لم يتوقف عمل المستشفى في مدينة القدس، حتى بعد سقوطها في أيدي الصليبيين الإفرنج، فظل يقدم الخدمات العلاجية للمحتاجين من سكانها الغزاة الإفرنج، كما كان عليه حاله قبل الغزو. ولمّا زار الرحالة الإسباني اليهودي بنيامين التطيلي (Benjamin of Tudela) مدينة القدس سنة ١١٧١م، وبعد ما يقرب من ٨٠ عاماً على احتلالها من الصليبيين، تحدث عن المستشفى مشيراً إلى أنه أحد ثلاثة مبان حصينة في المدينة، وأنه يتسع لِ ٤٠٠ فارس، ولكل المرضى الذين يحتاجون إلى المعالجة.[٣٠]

وعندما أمر السلطان صلاح الدين بإنشاء المستشفى الصلاحي في المدينة بعد تحريرها، والذي عرفته الرواية التاريخية المعاصرة باسم البيمارستان الصلاحي، على اسم السلطان، فإنه إنما كان يمارس تقليداً سلطانياً كان أرساه منذ أن أنشأ دولته، إذ سبق مستشفاه في القدس البيمارستان الصلاحي الذي كان أنشأه في مدينة القاهرة، حين أمر بتحويل القصر الذي كان يمتلكه الخليفة الفاطمي العاضد إلى مستشفى. وكانت سياسة صلاح الدين الصحية استمراراً للسياسة التي اتبعها أستاذه وسيده نور الدين زنكي، الذي سبق أن أنشأ أكبر مستشفيات القرون الوسطى في مدينة دمشق، كما أقام مستشفى مماثلاً في مدينة حلب. ولم يكن نور الدين زنكي ليكتفي بإنشاء المستشفيات في المدن الكبرى فقط، بل شمل ذلك كل أرجاء مملكته، حتى قيل عنه إنه أقام كثيراً منها، إلى جانب الخانات على الطرق الرئيسية لتقدم الخدمات للتجار والمارة والمسافرين.[٣١]

## النهضة الطبية أيام المماليك

لاقت سياسة النهوض بالشؤون التي أرساها نور الدين زنكي ومن بعده السلطان صلاح الدين الرعاية والاهتمام لدى السلاطين المماليك. وانعكست هذه الاستمرارية في الزيادة المطردة في عدد المستشفيات التي بدأت تنتشر في مدن فلسطين، في القدس وصفد ونابلس وغزة والرملة والخليل. فمنذ الأيام الأولى لسلطنة المنصور قلاوون، شرع في إنشاء ما عرف باسم البيمارستان المنصوري في مدينة الخليل، وذلك سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١ - ١٢٨٢م. ولمّا خلفه ابنه السلطان الناصر محمد بن

قلاوون، استمر في نهج أبيه في هذا المضمار؛ فأنشئت في إبان سلطنته أربعة مستشفيات في باقي المدن الفلسطينية.

قام القاضي فخر الدين محمد بن فضل الله، الذي كان يتولى وظيفة ناظر الجيوش في السلطنة، بإنشاء مستشفيين قبل وفاته سنة ٧٣٢هـ/ ١٣٣١ - ١٣٣٢م، كان الأول في مدينة الرملة، والثاني في مدينة نابلس. وكان عرف عن القاضي ابن فضل الله هذا ميله إلى البر والإحسان، وإكثاره من المشاريع الخيرية في مختلف أرجاء المملكة، وكان مسيحياً من أقباط مصر اعتنق الإسلام وحسن إسلامه.

ولم تمضِ أعوام سلطنة الناصر محمد بن قلاوون، حتى تم إنشاء مستشفى ثالث في مدينة صفد على نفقة نائب الشام المحسن الكبير الأمير تنكز الحسامي. وقام الأمير المملوكي سنجر الجاولي هو الآخر بإنشاء مستشفى رابع في مدينة غزة، وكان سبق أن تولى كرسي النيابة فيها، أعده لخدمة أهل نيابته وخدمة المسافرين والتجار المتنقلين بين مصر وبلاد الشام.[٣٢]

## الطب ومشاهير الأطباء في فلسطين

أدت سياسة تطوير المرافق الصحية لدى الحكام المتعاقبين من الأيوبيين، ومن المماليك من بعدهم، إلى الاهتمام بالأطباء وتشجيع العلوم الطبية. وانعكس ذلك في تبني علاقات شخصية حميمة أحياناً بين السلاطين ومشاهير الأطباء، فكانوا يرافقونهم في حلهم وترحالهم. واقتضت سياسة التحرير، التي انتهجها الزنكيون والأيوبيون ثم سلاطين المماليك، وكثرة الحملات العسكرية، خروج الأطباء، وخصوصاً الأطباء الجراحين، مع العساكر لمعالجة الإصابات والجروح التي يتعرض لها المقاتلون والاهتمام بصحة الأمراء والقادة العامة. وبالتالي، أدى ازدياد الطلب على خدمات الأطباء إلى تشجيع الأطباء والجراحين على تطوير مستواهم المعرفي في الناحيتين النظرية والعملية، إلى جانب اهتمامهم بالعلوم ذات الصلة بعلم الطب والطبابة، كعلم النبات والأحياء والكيمياء والفسيولوجيا وجسم الإنسان واستحضار العقاقير والأدوية والدهون. وكان على الطبيب وعلى دارس الطب أن يحيط ببعض العلوم النظرية، وببعض حقول المعرفة، كالفلسفة واللغة والأدب والشعر وغير ذلك. وكان من أبجديات تعلم مهنة الطب أن يطّلع الطبيب على أمهات الكتب التي أُلّفت في هذا المجال مثل، كتاب «الفصول» لأبقراط (ايبوكراتس اليوناني)، وكتاب «المسائل» لحنين بن إسحاق، وكتب أبي بكر الرازي في فنون المعالجة وأنواع الأمراض وتقبل الأجسام للعقاقير، إلى ما هناك من كتب أُخرى تثري معارف الطبيب وثقافته العامة،





ككتب غالينوس وأرسطو وإقليدس، وكتاب «القانون» لابن سينا.[٣٣]

وفي فلسطين اشتهر بعض الأسر العربية بمهنة الطب، إذ صار أبناؤها يتداولون المهنة ويرثونها جيلاً بعد جيل. ومن الأسر الفلسطينية عرفت أسرة ابن أبي فانَة العربية المسيحية المقدسية، والتي يعود تاريخ اهتمامها بالطب إلى العهد الذي كانت فيه فلسطين جزءاً من دولة الخلفاء الفاطميين. واستمر أبناؤها في ممارسة الطب أيام الاحتلال الصليبي وإلى ما بعد التحرير الصلاحي.

من المعروف عن جد هذه الأسرة الطبيب سليمان ابن أبي فانة أنه كان يتقن علم الفلك إلى جانب إتقانه العلوم الطبية. وعلى خلفية هذه المعرفة قيل إنه تنبأ بفتح بيت المقدس على يد الناصر صلاح الدين، وإنه حدد من خلال نبوءته تلك تاريخ الفتح، في أية سنة وأي شهر وأي يوم. فأرسل وهو في مدينة القدس واحداً من أولاده، وكان له خمسة أولاد، ليزف البشرى إلى صلاح الدين، وكان آنئذ في سورية، فأتاه ابن أبي فانة وهو يحاصر حصن بلدة شيزر، التي ولد وربا فيها الفارس الأديب والمؤرخ أسامة بن منقذ. وعندما أُحضر الرسول حامل البشارة ومثل بين يدي السلطان بلّغه ببشرى الفتح، فأكرمه صلاح الدين ووعده بجائزة ثمينة إذا ما تحققت نبوءة والده. ولمّا حدث الفتح بعد ذلك، كما تنبأ ابن أبي فانة، وفى السلطان بوعده، ثم أمر بألاّ يتعرض أحد من الجند لأبناء هذه الأسرة المقدسية، وبأن تصان دورهم وأملاكهم، وكذلك بأن تضاعف الرواتب التي كان يتقاضاها والد الأسرة وأبناؤه الذين كانوا يمارسون الطب أيضاً فترة الاحتلال الصليبي. وقد ذُكر آنفاً أن مستشفى مدينة القدس ظل يؤدي خدماته أيام الاحتلال. وبالإضافة إلى ذلك كله، فإن السلطان صلاح الدين وهب هذه الأسرة، زيادة في تكريمها، جميع ما استحق على أفراد العائلات المسيحية العربية من أموال الفدية التي اصطلح على تأديتها في مقابل ضمان سلامة من كان في المدينة من الإفرنج وغيرهم من المسيحيين المشارقة. وعندما توفي والد هذه الأسرة، لقي أبناؤه الأربعة الذين ظلوا في قيد الحياة من بعده الرعاية الكاملة من أمراء الأسرة الأيوبية. فاختص واحد منهم ويدعى أبو سعيد مهذب الدين بالملك المعظم عيسى ابن الملك العادل، واختص الابن الثاني ويدعى أبو شاكر موفق الدين بالملك الكامل ابن العادل، والذي كان ملكاً في مصر، وعلا شأنه عنده. واختص ابنان آخران هما أبو نصر وأخوه أبو الفضل بالملك الناصر داود، ابن المعظم عيسى، والذي كان ملك إمارة الكرك.

لم يقتصر اهتمام الأيوبيين على أبناء سليمان ابن أبي فانة فحسب، بل تواصل الاهتمام أيضاً بأحفاده وذريته، فعرف عن أحد أحفاده المدعو أبي حليقة اتصاله بملك مصر الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب، ثم بابنه من بعده الملك توران شاه.

إلى جانب أسرة ابن أبي فانة، اشتهرت في فلسطين أسر أُخرى كان لها عراقة في مهنة الطب، ذكر منها أسرة الطبيب موفق الدين يعقوب بن سقلاب النصراني. وكان جد هذه الأسرة يتقن اللغة اللاتينية، فقيل إنه ترجم بعض المراجع الطبية إلى العربية. وكان ابن سقلاب النصراني من مواليد مدينة القدس، لأنه كان أحد الأطباء العاملين في مستشفاها المعروف بالبيمارستان الصلاحي، وكان ذا صلة حميمة بملك الشام الأيوبي المعظم عيسى. ومن مشاهير الأطباء الفلسطينيين في هذه الحقبة التاريخية، عرف الطبيب الحكيم الشيخ أبو منصور النصراني، والطبيب رشيد الدين الصوري، وآخرون.(٣٤)

## نظام العمل في البيمارستان

يكشف بعض التقارير الإخبارية أن نظام العمل في البيمارستان الإسلامي في عهد المماليك، ومستوى الخدمات الطبية وغير الطبية التي يوفرها لزواره من المرضى، كانا على قدر كبير من الكفاية والتقدم بحيث لا تخجل بهما المستشفيات في كثير من دول العالم الثالث اليوم. فقد تناول ثلاثة من مؤرخي ذلك العصر، وهم المقريزي وابن إياس والنويري، المواصفات الخاصة بالمستشفى الذي أسسه السلطان قلاوون الألفي في القاهرة سنة ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤ - ١٢٨٥م، والذي عرف باسم البيمارستان المنصوري، وتناولوا أوضاع إنشائه، ومصادر تمويله، ومرافقه وأقسامه وأجنحته، وجمهور مرضاه، وطرق معالجتهم وخدمتهم، بالإضافة إلى المرافق الأساسية المضافة إليه والتي لا بد من وجودها لاستمراريته ونجاعة عمله. ويقول النويري في هذا الصدد: «ولمّا كملت العمارة وقف السلطان من أملاكه القياسر والرباع والحوانيت والحمامات والفنادق والأحكار وغير ذلك من الضياع بالشام، وما يحصّل من أجر ذلك وريعه وغلاته في كل شهر جملة كثيرة. وجعل أكثر ذلك على البيمارستان... وأوقفه السلطان على الملك والمملوك والجندي والأمير والوزير والكبير والصغير والحر والعبد والذكر والأنثى. وجعل لمن يخرج منه من المرضى عند برئه كسوة. ومن مات جهزه وكفن ودفن. ورتب فيه الحكماء الطبائعية [المتخصصين بالأمراض الباطنية] والكحالين [أطباء العيون] والجرائحية [المتخصصين بالجراحة] والمجبّرين [المتخصصين بالعظام] لمعالجة الرمدى والمرضى والمجرحين والمكسورين من الرجال والنساء. ورتب فيه الفراشين والفراشات والقَوَمَة لخدمة المرضى، وإصلاح أماكنهم وتنظيفها وغسل ثيابهم وخدمتهم في الحمّام. وقرر لهم على ذلك الجامكيات الوافرة. وعملت التخوت والفرش والطراريح والأنطاع



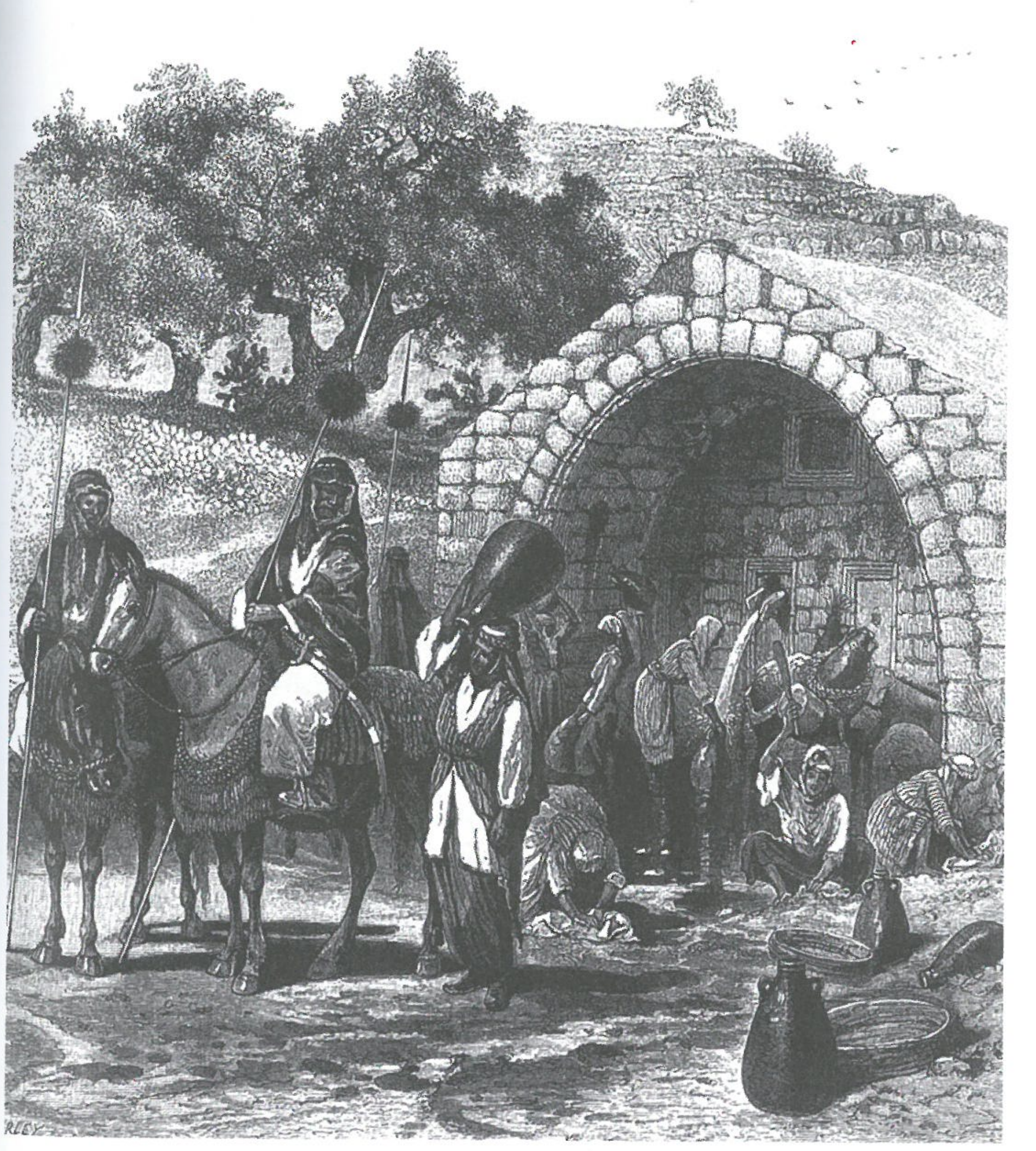


والمخدات واللحف والملاءات، لكل مريض فرش كامل. وأفرد لكل طائفة من المرضى أمكنة تختص بهم فجعلت الأواوين الأربعة المتقابلة للمرضى بالحميات وغيرها. وجعلت قاعة للرمدى، وقاعة للجرحاء، وقاعة لمن أفرط به الإسهال، وقاعة للنساء، ومكان حسن للممرورين من الرجال ومثله للنساء، والمياه تجري في أكثر هذه الأماكن. وأفردت أماكن لطبخ الطعام والأشربة والأدوية، والمعاجين وتركيب الأكحال والشيافات [المساحيق] والسفوفات، وعمل المراهم والأدهان وتركيب الترياقات. وأماكن لحواصل العقاقير وغيرها من هذه الأصناف المذكورة. ومكان يفرق منه الشراب وغير ذلك من جميع ما يحتاج إليه. ورتب فيه مكان يجلس فيه رئيس الأطباء لإلقاء درس طب ينتفع به الطلبة. ولم يحصر السلطان هذا المرفق الصحي المبارك في المرضى المحليين، بل جعله سبيلاً لكل من يصل إليه في سائر الأوقات من غني وفقير، ولم يقتصر أيضاً على من يقيم به من المرضى، بل يرتب لمن يطلب وهو في منزله ما يحتاج إليه من الأشربة والأغذية والأدوية، حتى إن هؤلاء زادوا في وقت من الأوقات على من هو مقيم بالبيمارستان.»

ويضيف النويري إلى هذه التفصيلات جملة أُخرى من البيانات المتعلقة بالصيانة والإشراف على المصاريف وضبط حسابات الخارج والوارد، وأعمال المراقبة والتقارير المفصلة لرواتب الموظفين والعاملين، وعمليات ضبط ريع الأملاك الموقوفة على هذه المؤسسة وتدقيق حساباتها وإيداعها صندوق البيمارستان، فضلاً عما كان متعلقاً بعمليات صيانة المباني والمرافق وشتى أنواع الخدمات الجارية. وكانت هذه التقارير ترفع إلى الناظر والمستوفي الموكل إليهما إدارة البيمارستان. إذ كان النويري تولى وظيفة مباشر البيمارستان مدة أربعة أعوام. وفيما يتعلق باستقبال المرضى والمراجعين، فقد اتبع نظام ثابت مقنّن؛ فعندما يقبل المريض في أحد أقسام المستشفى، عليه أن ينزع ما عليه من ثياب ويعطى ثياباً خاصة بالمستشفى وتحفظ ثيابه العادية وما معه من أمتعة أو نقود عند أمين المستشفى إلى حين خروجه منه. ويخصص له سرير. ويدور الأطباء على المريض مرتين في اليوم، في الصباح والمساء، لإجراء الفحوصات والمعاينة وتقرير نوع العلاج اللازم. وبالإضافة إلى الأقسام المذكورة المتعلقة بأنواع المرضى، فقد عيّن جناح خاص لذوي الأمراض العقلية غير تلك الخاصة بالأمراض الجسدية.(٣٥)

## مياه الشرب في المدن الفلسطينية

كان توفير مياه الشرب للمدن في بلاد الشام في أعلى سلم أولويات سلاطين




The Fountain of the Virgin, Nazareth 1875 - 1880 نبع العذراء – الناصرة





المماليك، ليس فقط لأن الماء مصدر الحياة الحضارية ووسيلتها، بل أيضاً لأنه مرفق يرتبط بالعقيدة وإقامة شعائر الدين. فمنذ أن رمم الظاهر بيبرس قلعة صفد وأسكن المسلمين فيها حرص على توفير الماء اللازم لأهلها. ثم درج السلاطين من بعده على اتباع السياسة نفسها. وكانت مدينة القدس ثالث الحرمين الشريفين محور اهتمام السلاطين في هذا الصدد، لا فقط بسبب قلة الموارد المائية فيها، بل أيضاً بسبب تنامي حاجة أهلها وزوارها إلى الماء للشرب والوضوء والغسل. ولم يقتصر اهتمام السلاطين على مدينة القدس، بل امتد ليشمل باقي المدن الفلسطينية حيث قضت الحاجة إلى ذلك. فرأينا انعكاساً لذلك في مدينة الخليل والرملة وصفد. ففي سنة ٧٢٧هـ/ ١٣٢٦ - ١٣٢٧م، قام نائب الشام، الأمير سيف الدين تنكز الحسامي، في أثناء فترة ولايته على نيابة دمشق، بفتح عين الماء في مدينة القدس واستنبط ماءها، بعد أن شحت المياه في المدينة وصار الحصول عليها عالي التكلفة.[٣٦]

### قناة العرّوب

يبدو أن مياه هذه العين وغيرها من الآبار المنتشرة في أحياء المدينة لم تكن كافية لسد الحاجة المتزايدة إلى الماء. فقرر النائب تنكز أن يدخل الماء بواسطة قناة تصل من العرّوب الواقعة بين بيت لحم ومدينة الخليل إلى داخل الحرم. وكان مثل هذا المشروع الضخم، الذي يمتد طوله بضعة عشر كيلومتراً، يحتاج إلى خطة هندسية ومعمارية معقدة بسبب طوبغرافية المنطقة، فضلاً عن الجهود الضخمة وآلاف الأيدي العاملة التي يحتاج إليها تنفيذه. أصدر الأمير تنكز أوامره إلى ولاة النواحي التابعة لنيابته بتوفير الأيدي العاملة. وانتدب أحد رجاله للإشراف على تنفيذ المشروع، وهو الأمير قطلوبك الجاشنكير، وأمده بالأموال والنفقات اللازمة. استغرق العمل في هذا المشروع عاماً كاملاً، وفرغ منه سنة ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧ - ١٣٢٨م، إذ وصلت القناة إلى داخل الحرم، وصارت مياه العرّوب تجري فيها وتصب في حوض غطيت أرضيته وجوانبه بالرخام يقع بين المسجد الأقصى والصخرة سعته ١٠٠ ذراع، فعظم نفع هذا المشروع على أهل القدس وعمّار الحرم جميعاً.

بعد إتمام هذا المشروع عيّن موظف رسمي للإشراف على قناة العرّوب وصيانتها برتبة مَشَدّ، وخُصص له راتب ثابت، وخصصت الرسوم التي يدفعها الحجاج المسيحيون عند زيارة كنيسة القيامة للميزانية المرصودة لهذه الوظيفة. وسمّى أحد المصادر واحداً ممن تولوا وظيفة المشَدّ، خلال النصف الثاني من القرن الثامن الهجري، وهو الأمير أبو شامة.[٣٧]

يبدو أن مشروع قناة العرّوب كان الحل الأمثل للتغلب على أزمة نقص المياه التي كانت تعاني جرّاءها مدينة القدس في العهد المملوكي. إذ يبين بعض التقارير الإخبارية أنها ظلت تزود القدس بمياه الشرب حتى نهاية القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، ولأكثر من ١٦٠ عاماً منذ إنشائها أول مرة. ولم تقم على هذا الصعيد أية محاولة لإنشاء مشاريع ري جديدة بدلاً منها. وكلما كانت تتعرض هذه القناة للخلل، أو يتعرض بعض أجزائها للخراب، كانت السلطات المملوكية تقوم بإصلاح الأجزاء المتضررة كي يظل تدفق الماء متواصلاً من دون انقطاع. وتشير مصادر المعلومات التي بين أيدينا إلى ثلاث عمليات ترميم أمر السلاطين بإجرائها خلال الفترة الآنفة الذكر. وقد جرت أول عملية ترميم سنة ٧٨٥هـ/ ١٣٨٣ – ١٣٨٤م، أيام سلطنة الظاهر برقوق الأولى في الفترة ١٣٨٢ – ١٣٨٨م. وذكر أحد المصادر أن تعمير قناة العرّوب وجريان الماء فيها إلى القدس كان من المشاريع العمرانية التي أنجزت في عهده.(٣٨) وحدث الترميم الثاني بعد ما يقرب من قرن بعد عهد السلطان برقوق، إذ ذكر مجير الدين العليمي أن الملك الظاهر خشقدم شرع في أواخر سلطنته، سنة ٨٧٢هـ/ ١٤٦٧ – ١٤٦٨م، في عمارة القناة الواصلة من العرّوب إلى القدس الشريف، لكنه مات قبل أن ينجز هذه المهمة. فقام خلفه السلطان الظاهر بلباي المؤيدي (الملقب بالمجنون) بإصدار مرسوم سلطاني يقضي بإتمام ما شرع فيه سلفه من العمارة، لكن قصر مدة حكمه حال دون ذلك. فلمّا قام بعده السلطان أبو السعيد تَمربُغا الظاهري، أصدر هو الآخر مرسوماً بإكمال العمارة، وكسابقه لم تبلغ مدة سلطنته الشهرين، فظلت أعمال الترميم معطلة عند المستوى الذي وصلت إليه أيام سلطنة خشقدم. وعندها تنادى أهل بيت المقدس، مشايخهم وقضاتهم وأعيانهم، فكتبوا إلى السلطان الجديد الأشرف قايتباي المحمودي الظاهري وناشدوه إتمام عمارة القناة. فلبى السلطان مناشدتهم، وأصدر مرسوماً شريفاً يأمر فيه بذلك. فعمرت القناة وتدفقت مياه العرّوب من جديد إلى الحوض الموجود على أرض الحرم.

ولم تمضِ إلاّ بضع عشرة سنة بعد الترميم الثاني، حتى أصبحت القناة بحاجة إلى ترميم جديد، فأصدر السلطان أبو السعادات محمد بن قايتباي، سنة ٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م، مرسوماً يكلف فيه الأمير البطّال قانصوه اليحياوي (الذي كان نائباً في دمشق فعزل ونفي إلى مدينة القدس) عمارة قناة العرّوب، وجهز له من الخزانة السلطانية مبلغ ٥٠٠٠ دينار، ١٠٠٠ دينار تكون نفقة للأمير، و٤٠٠٠ دينار تنفق على ترميم القناة. فشرع اليحياوي في أعمال الترميم، واصطحب معه ٢٠٠ عامل، ولم يتوقف حتى أنجز المهمة.(٣٩)





## مشاريع مبكرة لتوفير مياه الشرب في القدس

كانت في مدينة القدس مشاريع أُخرى غير قناة العرّوب، إذ حرص الحكام المماليك على توفير ماء الشرب لسكان المدينة من المصادر المحلية المتاحة قبل أن تنشأ الحاجة إلى جر مياه ينابيع العرّوب إليها. فقد أوردت المصادر ذكراً للبركة التي أنشأها الظاهر بيبرس، والتي كانت تحمل اسمه. ومع أن المصادر لم تحدد بالضبط الموضع الذي بنيت فيه هذه البركة، إلاّ إنها تكون بذلك أول مشروع للري يجري في المدينة في العهد المملوكي. ثم توالى بعدها إنشاء مشاريع ري أُخرى كشفت الروايات عن أسماء القيّمين عليها، منها المبادرة التي ارتبطت بالأمير المملوكي علاء الدين الحاج الركني، الذي أمر بتنظيف ما كان يعرف ببئر السقاية. وكانت مياه هذه البئر قد غاضت ونضبت. فرأى المهندسون أن مخرج النبع في باطن البئر انسد ومنع جريان الماء، فلمّا نظف مخرج النبع تدفق الماء فيه واستفاد الناس منه، وحدث استنباط ماء هذه البئر سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٤ – ١٢٦٥م، في إبان سلطنة الظاهر بيبرس. وفي مستهل القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، أمر السلطان برقوق بإنشاء بركة في ظاهر القدس خارج الأسوار سميت بركة السلطان، وكان ذلك سنة ٨٠١هـ/ ١٣٩٨ – ١٣٩٩م، أي آخر سنة في ولايته.

وفي إبان حكم الناصر محمد بن قلاوون، ولا سيما في ولايته الثالثة التي استهلت سنة ٧٠٩هـ/ ١٣١٠م، ذكر أنه أمر بتعمير قناة السبيل التي عند بركة الظاهر بيبرس. ويبدو أن هذه القناة هي التي كانت تزود بركة السلطان بيبرس وترفدها بالماء. وفي هذا السياق، يذكر ابن الأمير شاهين الظاهري (المتوفى سنة ٦٩٢هـ/ ١٢٩٢ – ١٢٩٣م) أن والده أنشأ في مدينة القدس، على سبيل ما كان يسمى في التراث الحضاري الاجتماعي الإسلامي أعمال البر والإحسان، قبة وصهريجاً ومسقاة للسبيل، وهي ما نسميها اليوم المشربة التي توفر ماء الشرب للسابلة في طرق المدينة وأسواقها. فكان ماء تلك المشربة يتدفق من الصهريج. وعلى ذكر سبيل شاهين الظاهري هذا، يجب الإشارة إلى كثير من السُّبل التي انتشرت في حارات القدس وأحيائها خلال العهد المملوكي، منها ما اندثر، ومنها ما هو باقٍ إلى يومنا هذا. وكانت هذه السبل جميعاً تندرج ضمن ما كان يسمى أعمال البر والإحسان، يتبرع بإنشائها المحسنون من رجال الدولة أو موسرو الحال من الناس. فكان السبيل يقام عادة على نبع أو بئر تجري فيها المياه الجوفية، أو على صهريج اصطناعي، يتولى خدمته عامل يكلف تنظيف أواني الشرب وتيسير الماء للمارة والمنتفعين. وعادة يُخصص وقف لتغطية نفقات عامل السبيل وما قد يحتاج إليه من أعمال الصيانة، أو

ثمن نقل الماء وتوفيره. وقد تفنن وتنافس المهندسون المسلمون في تصميم المبنى المخصص للسبيل، حتى صارت مبانيه تعكس نوعاً من الإبداع الهندسي الجميل وغير المسبوق. وكان مبنى سبيل قايتباي إحدى تحف الإبداع الهندسي الإسلامي الرائعة في مدينة القدس. وإلى جانب سبيل قايتباي، اشتهر في بيت المقدس عدد من السبل منها: سُبيل الأمير تنكز؛ سبيل زاوية القرمي؛ سبيل المدرسة الطشتمرية؛ سبيل خان السلطان؛ سبيل التربة الخاصة بالملك بركة خان، وهو السبيل الذي قامت مكانه المكتبة الخالدية.

وذُكر أنه أقيم في القدس حياض وسبل أُخرى غير الآنفة الذكر، منها حوض سبيل أُقيم بجانب نبع قريب من زاوية الشيخ علي البكا. وقد أنشئ هذا الحوض على نفقة الأمير سيف الدين ابن سلار، وأشرف عليه الأمير كيكلدي النجمي. وأنشأ الأمير بكتمر الجوكندار حوضاً على باب المسجد وأوقف عليه الأوقاف.(٤٠)

## مشاريع المياه في مدن فلسطينية أُخرى

لمّا كانت مدينة إبراهيم الخليل عليه السلام صنواً في القداسة الدينية الإسلامية لبيت المقدس، وتبعاً لذلك نالت مكانة الحرم، فعدت ثاني الحرمين الشريفين في بلاد الشام، حظيت هي الأُخرى باهتمام السلاطين وأمراء الدولة، ونالها حظ وافر من المشاريع الرسمية ومبادرات أهل البر والإحسان من أعيان المسلمين.

ففي سنة ٧١٣هـ/ ١٣١٣ - ١٣١٤م، عندما أسندت كرسي ناظر الحرمين الشريفين إلى الأمير علم الدين سنجر بن عبد الله الجاولي، الذي كان تولى آنئذ وظيفة نيابة غزة، أمر بإجراء المياه في إحدى العيون الكائنة خارج بلد الخليل وإدخالها منطقة الحرم. لكن قلة مياه تلك العين من جهة، وصعوبة الانتفاع بها من جهة أُخرى، حدوا أحد المحسنين من الأمراء على المبادرة بمشروع ري متطور يسد حاجة أهل البلاد وزوار الحرم الوافدين عليه من شتى أقطار المسلمين. كان هذا الأمير المحسن هو بكتمر الجوكندار، وهو أحد أمراء المماليك من ذوي رتبة أمراء الألوف. فرصد الأموال وأوكل إلى بعض رجاله الإشراف على بناء قناة تجري فيها مياه أحد الينابيع القريبة من المدينة كي تصب داخل البلد وينتفع بها سكانها. وبسبب انخفاض موقع المنبع عن مستوى البلد فقد بنيت القناة بطريقة هندسية معينة، بحيث كان الماء يجري فيها صعداً إلى الأعلى فيصل إلى حوض يوزع الماء على أحيائها كافة. وقد وصف المؤرخ ابن فضل الله العمري، الذي رأى القناة تلك رؤية العين كيف أن الماء يجري فيها إلى أعلى، بقوله: «وشاهدتُ الماءَ يصعد في هذه القناة إلى أعلى صُعُداً بارتفاع





ما يقرب من عشرين درجة.» بلغت تكاليف هذا المشروع نحو ٤٠,٠٠٠ دينار دفعها هذا المحسن من حر ماله. ولمّا قدمت إليه الكشوف والوصولات أبى أن ينظر إليها، بل ألقاها في الماء وأتلفها، وروي عنه أنه قال: «شيء خرجنا عنه لله لا نحاسب عليه.» وبعد أن أُتم مشروع هذه القناة انتفع الناس به، وكان البلد قبل ذلك يعاني العطش، إذ كانت شربة الماء تكلف نصف درهم.(٤١)

وفي خطوة مماثلة لما تم عمله في الخليل، أُدخل الماء الجاري إلى مدينة صفد من نبع قريب من البلدة. ففي سنة ٨٨٢هـ/ ١٤٧٧ - ١٤٧٨م، لمّا قام السلطان الأشرف قايتباي برحلته المشهورة إلى بلاد الشام، دخل مدينة صفد ليتفقد أحوالها، فأمر بإجراء بعض المشاريع العمرانية، وكان من جملتها أنه أمر ببناء قناة تنقل الماء من العين إلى داخل المدينة. وكانت صفد قبل ذلك تشرب من آبار العِدّ التي تجمع فيها مياه الأمطار. وكان الأمير بكتمر الجوكندار، الذي تولى نيابة مملكة صفد سنة ٧٠٧هـ/ ١٣٠٧ - ١٣٠٨م، قد عمّر صهريجاً في المدينة على مقربة من المغارة التي حولها تربة لزوجته، وكان الناس يشربون من ماء هذا الصهريج إلى أن أنشئت قناة السلطان الأشرف قايتباي.(٤٢)

وبالقرب من مدينة الرملة، قام الرجل المحسن الأمير أبو الفضائل القبطي المصري، الذي كان يتولى منصب ناظر الخاص السلطاني في القاهرة، والذي كان أسلم في أيام سلطنة بيبرس الجاشنكير (٧٠٨هـ/ ١٣٠٨ - ١٣٠٩م)، بحفر الآبار على الطريق المؤدية إلى مدينة الرملة لتجمع فيها مياه المطر، إذ لم يعرف بوجود ينابيع كافية قريباً من المدينة.(٤٣)

## سماط الخليل

هي المائدة الخيرية التي تقدم مجاناً لزوار الحرم الإبراهيمي في مدينة الخليل في الأوقات كافة. أمّا السماط لغة فهو الصف من الناس الذين يقفون على جانبي الممر الذي كان يسير فيه الخليفة وهو خارج من قصره، ولعله استعير هنا لأن المجتمعين على المائدة يجلسون، أو ربما يقفون صفين أحدهما قبالة الآخر. وقد تحدث المقريزي عن الأسمطة السلطانية، كإحدى مؤسسات القصور السلطانية أيام المماليك، ومن قبلهم أيام الخلفاء الفاطميين في مصر، فقال: «وكانت العادة أن يمد بالقصر في طرفي النهار في كل يوم أسمطة جليلة لعامة الأمراء البرانيّين وقليل ما هم. فبكرة يمد سماط أول لا يأكل منه السلطان ثم ثان بعده يسمى الخاص، قد يأكل منه السلطان وقد لا يأكل. ثم ثالث بعده ويسمى الطارئ ومنه مأكول السلطان...»

وتعود فكرة سماط الخليل في أساسها إلى الموروث العربي الإسلامي الذي تبوأ فيه سيدنا إبراهيم، خليل الله عليه السلام، موقعاً محورياً بني من حوله كثير من القيم الاجتماعية والدينية في الجاهلية والإسلام على حد سواء. فقيمة إقراء الضيف وإكرام الوافدين التي تميزت بها المجتمعات العربية في الجاهلية والإسلام كانت إحدى السنن التي سنها إبراهيم لذريته من بني إسماعيل الذين صاروا يعرفون في مصطلح النسابين بالعرب المستعربة. ولمّا نزل القرآن على نبينا محمد (ص) أشار بعض الآيات (الذاريات: ٢٤ - ٢٦) إلى سنّة إقراء الضيف التي سنها إبراهيم لبنيه حين نزل به الملائكة الذين جاؤوا يحملون البشارة له ولزوجته بالولد. وعلى خلفية هذا الموروث، كان من الطبيعي أن تقترن زيارة الحرم الإبراهيمي، حيث مدفن إبراهيم ومرقده، بإطعام جمهور الزائرين والمصلين والمتبركين.(٤٤)

أمّا من الناحية التاريخية، فإن أول ذكر لسماط الخليل ورد في رحلة ناصر خسرو قبيل أواسط القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي. فعندما زار هذا الرحالة المسلم الفارسي الأصل فلسطين، سنة ٤٣٩هـ/١٠٤٧ - ١٠٤٨م، وصف مشهد الخليل وأشار إلى دار الضيافة التي يمد فيها هذا السماط للزائرين قائلاً: «وعلى سطح المقصورة التي في المشهد حجرات للضيوف الوافدين، وقد وقف عليها أوقاف كثيرة من القرى ومستغلات بيت المقدس.» وأضاف قائلاً: «ويعطون الضيوف المسافرين والزائرين الخبز والزيتون. وهناك طواحين كثيرة تديرها البغال والثيران لطحن الدقيق. وبالمضيفة خادمات يخبزن طول اليوم، ويزن رغيفهن منّاً واحداً. ويعطى من يصل هناك رغيفاً مستديراً وطبقاً من العدس المطبوخ بالزيت، وزبيباً كل يوم. وهذه عادة بقيت من أيام خليل الرحمن عليه السلام حتى الساعة. وفي بعض الأيام يصل عدد المسافرين خمسمئة فتهيأ الضيافة لهم جميعاً.»

ويضيف يحيى الخشاب مترجم كتاب «سفرنامه» («رحلة ناصر خسرو») أن المستشرق الفرنسي كاترمير (Quatremère) جمع في كتابه «تاريخ السلاطين المماليك» كل التقارير التي كتبها الرحالة والسيّاح الأوروبيون عن المشهد والمضافة والسماط. ومن المرجح أن بدء العمل بهذا التقليد حدث أيام خلافة العبيديين في فترة خلافة المهدي الفاطمي.

لكن أخبار هذا السماط تنقطع في المصادر التي بين أيدينا في الفترة الممتدة بين الاجتياح الصليبي وقيام الدولة المملوكية. ثم تخرج المصادر عن صمتها لتشير إلى استئناف العمل بهذا التقليد منذ الأيام الأولى لسلطنة الظاهر بيبرس. فيذكر ابن عبد الظاهر، في تقرير إخباري يغطي أحداث سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣ - ١٢٦٤م، خبر استئناف عمل السماط فيقول: «وفي صفر من هذه السنة وردت كتب الأمير عز الدين إستادار





النائب بالكرك، أنه رتب رواتب الخليل، ورتب الأسمطة والضيافة للوافدين، وكان ذلك قد قطع من مدة طويلة.»

ثم تحول سماط الخليل، منذ أن استأنفه نائب الكرك، من مؤسسة ذات طابع خيري تطوعي إلى مؤسسة رسمية سلطانية، فتجاوزت بذلك إطارها الإقليمي المحلي، وصارت مؤسسة مملوكية سلطانية. وأخذ السلاطين منذ ذلك الحين يولونها الرعاية والاهتمام ويحبسون عليها الأوقاف ليصرف ريعها عليها، وبدأ السلاطين بتعيين الموظفين والمشرفين على مؤسسة السماط وبتحديد حجم رواتبهم ومعلومهم. ويروي المؤرخ ابن إياس أن الظاهر بيبرس حبس على سماط الخليل جهات كثيرة ظلت قائمة إلى ما بعد سقوط دولة المماليك على يد الأتراك العثمانيين. ويؤكد المؤرخ الفلسطيني قاضي القضاة مجير الدين الحنبلي العليمي في هذا الصدد أن أوقاف السماط كانت من الكثرة بحيث يصعب حصرها. ويبدو أن كلام الحنبلي لا يجانب الحقيقة، إذ استمر السلاطين المماليك في تحبيس الأوقاف على هذا السماط حتى وقت متأخر. فأمر السلطان برقوق (٧٨٤ - ٨٠١هـ/ ١٣٨٢ - ١٣٩٩م) بأن توقف قرية دير إستيا الواقعة في الجنوب الغربي لمدينة نابلس على السماط، وشرّط ألاّ يصرف ريع هذه القرية إلاّ على السماط فحسب. ثم نقش نص وثيقة الوقف على عتبة باب المسجد الإبراهيمي، وبالتحديد على عتبة الباب الشرقي.(٤٥)

لم يتأخر تشغيل هذه المؤسسة، مؤسسة سماط الخليل منذ أن أمر نائب الكرك باستئناف تقديم خدماتها لزائري الحرم الإبراهيمي. ففي سنة ٦٦٤هـ/ ١٢٦٥ - ١٢٦٦م، خرج الظاهر بيبرس بجيشه في مهمة قتالية في سواحل بلاد الشام، ولمّا وصل إلى غزة وزع المهمات على قادته، فانطلقوا نحو أهدافهم. أمّا هو فتوجه من غزة لزيارة القدس والخليل، فأدى طقوس الزيارة، وجلس يبحث في مظالم الناس، ولمّا فرغ من ذلك مُدّ سماط الخليل فأكل منه كواحد من الناس. وكانت هذه الزيارة بمثابة ما يعرف اليوم بمصطلح حفل الافتتاح لهذه المؤسسة التي لم يمض على استئناف تفعيلها عام واحد. ومنذ ذلك التاريخ استمر إجراء التحسينات والإضافات على مضافة خليل الرحمن التي يمد فيها السماط. وسجلت في هذا المضمار آثار حسنة قام بها الأمير الكبير علاء الدين الأعمى، آيدغدى بن عبد الله الصالحي النجمي، الذي كان تولى منصب ناظر الحرمين الشريفين في سلطنة الظاهر بيبرس حتى أيام المنصور قلاوون الألفي. وفي مدة ولايته هذه، قام بتعمير بعض المرافق الضرورية لمؤسسة السماط، كمخازن الحبوب والأفران والطواحين، وزاد في طاقتها الإنتاجية والتشغيلية حتى تضاعف حجم خدمات هذه المؤسسة لجمهور الزائرين أضعافاً مضاعفة. فبعد أن كانت تستهلك خمس كيالج قمح في اليوم وكيلجة من

العدس، ازدادت كمية القمح المستهلك للضيافة في السماط حتى بلغت غرارتين من القمح يومياً. ومع اتساع خدمات السماط وكثرة عدد المنتفعين به أصدر الظاهر بيبرس مرسوماً عيّن فيه الموضع الذي يجب أن يمد فيه السماط، ليكون في ناحية بعيداً عن المسجد، كي لا يختلط مرتادو السماط بالمصلين ويؤثر العمل في مرافقه في سير الصلوات.(٤٦)

وقدم مجير الدين الحنبلي العليمي في موضع آخر من كتابه وصفاً للوجبة الرئيسية ونظام العمل وجمهور المنتفعين بخدمات السماط وأعدادهم وأي صنف من الناس هم والنظام الذي يسير عليه، فكتب يقول: «وبجوار المسجد الجاولي من جهة القبلة، المطبخ الذي تعمل فيه الدشيشة للمجاورين والواردين. وعلى باب المطبخ تدق الطبلخانة في كل يوم بعد صلاة العصر عند تفرقة السماط الكريم. وهذا السماط من عجائب الدنيا؛ يأكل منه أهل البلد والواردون. وهو خبز يعمل في كل يوم ويفرق في ثلاثة أوقات: بكرة النهار، وبعد الظهر لأهل المدينة، وبعد العصر تفرقة عامة لأهل البلد والواردين.

«ومقدار ما يعمل فيه من الخبز كل يوم أربعة عشر ألف رغيف. ويبلغ إلى خمسة عشر ألف رغيف في بعض الأوقات إذا كان عندهم زائر. وأمّا سعة وقفه فلا تكاد تنضبط وأمّا سماطه الكريم فإنه لا يمنع منه أحد؛ لا من الأغنياء ولا من الفقراء.

«وأما السبب في دق الطبلخانة كل يوم عند تفرقة السماط بعد العصر... أن الأصل في ذلك أن سيدنا إبراهيم عليه السلام، كانت تأتيه الضيوف... فصارت سنّة بعده تعمل في كل يوم. وعند باب المسجد حيث تدق الطبلخانة، المكان الذي يصنع فيه خبز السماط من الأفران والطواحين وهو مكان متسع يشتمل على ثلاثة أفران وستة أحجار للطحن، وفوق هذا المكان حواصل يوضع فيها القمح والشعير. ورؤية هذا المكان علواً وسفلاً من العجائب فإنه يدخل إليه بالقمح فلا يخرج منه إلاّ وقد صار خبزاً.» ثم يستطرد الحنبلي متطرقاً إلى ذكر العدد الكبير من العمال والفعلة الذين يعملون على إعداد هذا السماط، من أجل الطحن والعجن والخبز وتجهيز الحطب والنار والآلات اللازمة وما يحتاج إليه من اعتناء وصيانة.(٤٧)

## الحمامات العامة

قِدَم الحمامات العامة كقدم المدينة الإسلامية، نشأت بنشوء تلك المدن. فلمّا اختطت مدينة الفسطاط أيام عمر بن الخطاب، أنشأ والي مصر الصحابي عمرو بن العاص السهمي في خطته حماماً سمي «حمام الفار» لصغر حجمه وضيق مساحته





مقارنة بالحمامات الرومانية - البيزنطية، لأن حمامات الروم، كما يقول ابن دقماق، كانت واسعة ثلاث طبقات، يدخل من الأولى إلى الثانية ثم إلى الثالثة. وكان حمام الفار أول حمام بني في الإسلام، فلمّا بناه عمرو بن العاص استحقره الروم وقالوا يصلح للفار، فسموه حمام الفار استحقاراً. وكان بعض الحمامات يتسع لأكثر من ٢٠٠ مستحم في آن واحد، يقوم على خدمتهم مجموعة من العاملين الموكلين بالزبائن يسمى الواحد منهم «بلاّناً». وكما في الفسطاط في مصر، أنشئت الحمامات في مدينتي البصرة والكوفة. وكان أول حمام اتخذ في البصرة هو حمام عبد الله بن عثمان بن أبي العاصي الثقفي، تلاه حمام فيل، وكان فيل أحد موالي زياد بن أبيه. أمّا الثالث فكان حمام مسلم بن أبي بكرة، ثم تملكه بعد ذلك عمرو بن مسلّم الباهلي. فمضت أعوام طويلة ولم يكن في البصرة إلاّ هذه الحمامات الثلاثة.

وروى البلاذري عن المدائني عن أبي مسعود الكوفي أنه كان في الكوفة حمامان قديمان: الأول لرجل من العباد (أهل الحيرة قبل الإسلام) ابتاعه منه عمرو بن سعد بن أبي وقاص، والثاني هو الحمام المعروف باسم حمام أعين، وأعين هو من موالي سعد بن أبي وقاص، وكان الحمام يدر على صاحبه دخلاً يومياً عالياً يقدر بـ ١٠٠٠ درهم. ولمّا فشا خبر هذه الأرباح بين الناس بادروا إلى استصدار الأذونات لإنشاء الحمامات. وكانت الحمامات لا تبنى في البصرة إلاّ بإذن من الولاة. ولم يمضِ وقت قصير بعد ذلك حتى أنشئت ١٠ حمامات أُخرى.(٤٨)

وفي بلاد الشام، بلغ عدد ما أحصي من حمامات دمشق ١١٦ حماماً، بينما تجاوز عددها في حلب ١٩٥ حماماً. وكانت المدن الأصغر حجماً لا تخلو من وجود حمامات، فيروي الأمير العربي أسامة بن منقذ أنه كان في كلٍ من معرّة النعمان وبلدة شيزر حمام واحد على الأقل. ومع عودة فلسطين وأجزاء أُخرى من بلاد الشام إلى أحضان الإسلام بعد تحريرها من الاحتلال الصليبي أبدى الحكام المسلمون الجدد، ملوك الأسرة الأيوبية وسلاطين المماليك من بعدهم، اهتماماً ملحوظاً ببناء الحمامات. ففي مدينة القدس أحصى كامل العسلي أكثر من ١٠ حمامات، بينما بلغ ما أحصاه النعيمي في دمشق ٣٦ حماماً في إبان هذه المرحلة التاريخية. ومن الجدير بالذكر في هذا السياق، أن إنشاء الحمامات لم يكن استثماراً اقتصادياً فردياً من أجل الربح المادي كما كان الحال أيام الخليفة عمر بن الخطاب في مدينة البصرة، وإنما صار الأمر جزءاً من الخدمات التي يوفرها السلاطين والأمراء والولاة لرعاياهم من أهل المدن في بلاد الشام، وذلك ضمن ما يعرف بأعمال البر، شأنها في ذلك شأن الرباط والخانقاه والسبيل. فكان من جملة ما يعزى إلى الأمير المملوكي تنكز الحسامي، الذي تولى نيابة الشام أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون، من الأعمال الخيرية أنه

أنشأ في مدينة القدس حمامين وقيسارية. وضمن الإطار نفسه أنشأ الأمير أيدغدي بن عبد الله الركني، الذي عرف بالتقوى والصلاح، حماماً في مدينة الخليل، وقيل إنه خطط الحمام بنفسه ورسم أسسه بيده. وكان الحمام مكاناً مناسباً لممارسة كثير من الأنشطة الاجتماعية، حتى إنه كان المقر الوحيد الملائم لبعض المناسبات الاجتماعية والاحتفالات. فكانت العرائس يقصدنه قبيل الزفاف للاستحمام والتزين وعرض زينتهن، يصحبهن حشد من أهلهن وقريباتهن وصديقاتهن. وكان العريس أيضاً يدعو أصحابه إلى الحمام ويقيم لهم الاحتفال ويقدم لهم الأطعمة. وكان الحمام عامة منتدى للنساء يلتقين فيه ويتبادلن أطراف الحديث، بالإضافة إلى غرف التزين. وكانت المرأة النفساء تذهب إليه في الأربعينية التي تلي الولادة للاغتسال والتطهر. بل كان أحياناً مكاناً للمعالجة لمن يعاني بعض الأمراض الجلدية أو الأعصاب والمفاصل. وقد رأينا كيف أن الحمام في مدن بلاد الشام كان المكان الذي يجمع الأضداد، فيحدثنا أسامة بن منقذ عن اختلاط بين العرب والمسلمين وبين الإفرنج داخل هذه الحمامات، كما كان يحدث في حمام في معرة النعمان، وكما شاهد ذلك بنفسه في أحد حمامات مدينة صور.[٤٩]

كان عمل الحمامات، وضمان سلامة خدماتها في المجالات الصحية والاجتماعية والأخلاقية، داخلاً في نطاق عمل المحتسب لصلة هذه الأمور بالقاعدة الدينية الشرعية، قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ومن هذا القبيل أفرد كل من الشيزري وابن الأخوة باباً خاصاً في الحسبة على الحمامات والقيمين عليها، بيّنا فيه المهمات المنوط بالمحتسب تنفيذها ومراعاتها منها: ضمان نظافة الحمام ومرافقه وخزانات الماء والغرف والصرف الصحي؛ نظافة الفوط والملاءات والمآزر؛ منع المجذوم أو الأبرص من دخوله؛ منع مظاهر التهتك أو التحلل؛ ضمان الحفاظ على آداب الدين والخلق؛ منع اختلاط النساء بالرجال؛ ضمان التزام العاملين في الحمام ورواده هذه الآداب. فيقول الشيزري: «خير الحمامات ما قدم بناؤه، واتسع هواؤه وعذب ماؤه وقدّر الأتان وقوده بقدر مزاج من أراد وروده... وينبغي أن يأمرهم المحتسب بغسل الحمام وكنسها وتنظيفها بالماء الطاهر، غير ماء الغِسالة، يفعلون ذلك مراراً في اليوم ويدلكون البلاط بالأشياء الخشنة... وينبغي أن يكون للحمامي مآزر يؤجرها للناس أو يعيرها لهم، فإن الغرباء والضعفاء قد يحتاجون إلى ذلك. ويأمرهم بفتح الحمام في السّحر لحاجة الناس إليها للتطهر فيها قبل وقت الصلاة. ويلزم الناطور حفظ ثياب الناس فإن ضاع منها شيء لزمه ضمان على الصحيح ضمانه.»[٥٠]





## الخانات على الطرق السلطانية

الخان لفظة فارسية الأصل تعني محطة للاستراحة مقامة على طرق القوافل والطرق السلطانية. وقد تعني، في الوقت نفسه، مكاناً لمبيت المسافرين، وربما تعني أيضاً مستودعاً لخزن البضائع المنقولة، شأنها شأن الفندق الذي كان يقام عادة في مراكز المدن الكبيرة. وقد ازدهرت مؤسسة الخان كمؤسسة ذات وظيفة اقتصادية في العصور الإسلامية في القرون الوسطى. ونشأت فكرة الخان عن الحاجة إلى تأمين سلامة التجار وبضائعهم على خطوط المواصلات، وحمايتهم من غارات لصوص البادية وقطاع الطرق. فكانت الخانات من هذا القبيل وسيلة لا مندوحة عنها لضمان أمن التجارة براً وبحراً على السواء، وخصوصاً في تلك الأصقاع التي يندر فيها توفر الحاجات اللازمة للتجار والمسافرين، كالطعام والماء. كما تسهل نزلاً آمناً ومريحاً لهم ولقوافلهم، إذ كانت تحيط به الأسوار العالية التي تتخللها أبراج عالية يرابط فيها الحراس والمدافعون.

ويرى بعض الباحثين أن أقدم خان أنشئ في الإسلام على طرق القوافل كان البناء الأموي الذي اشتهر باسم قصر الحير الشرقي. وكانت واجهة هذا المبنى تخلو من الشبابيك، بينما أحاطت به أبراج على زواياه الأربع، وحيطان القصر مدعمة بأعمدة أسطوانية، وفي داخله مبنى يتكون من طبقتين تطلان على باحة القصر، وتتكون الطبقة الأولى من بهو تتوسطه الأسطوانات وله شرفة في الطبقة العلوية. وكان الخان مشابهاً إلى حد ما لهذا المبنى القديم، فغالباً ما كان يتألف من طبقتين ويشتمل على كل المرافق التي يحتاج إليها النزلاء، كغرف النوم والحمام والفرن والمطبخ وأحواض الماء لسقي البهائم، بالإضافة إلى مستودعات لخزن البضائع، وعدد من الحوانيت يرتفق بها النزلاء. ومنذ مطلع القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، ازدهرت مؤسسة الخان في بلاد الشام، وتزامن ذلك مع ازدهار مماثل في كل من إيران وبلاد الأناضول. ولربما شكّل بعض الخانات أحياناً نواة تطورت مراكز مدنية من حوله، وقد حدث ذلك فعلاً في خان الظاهر بيبرس الذي أقامه خارج مدينة القدس في مطلع الستينيات من القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي.

ورد مصطلح الخان أول ما ظهر كمصطلح موثق في العصر الأيوبي في النقش الذي وضع على مدخل خان العقبة في جنوب فلسطين سنة ٦١٠هـ/١٢١٣ - ١٢١٤م. وظهرت نماذج متعددة من الخانات في الفترات الإسلامية المتعاقبة، كان من أبرزها الخان السلجوقي الذي انتشر في بلاد إيران وبلاد الأناضول، ثم الخان الأيوبي الذي كان سائداً في بلاد الشام، وكذلك النموذج المملوكي الذي انتشر في مصر وبلاد

الشام. وكان هناك نموذج رابع لمبنى الخان وهو الذي عرف بخان «درب الحاج». ويمكن أيضاً إضافة نموذجين آخرين، ذاك الخاص بالدولة الصفوية في إيران والخاص بالعثمانيين في تركيا.

وفي نهاية القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي ازدهرت الخانات، إذ نشطت التجارة نشاطاً غير مسبوق، وتضاعف عددها ولا سيما في بلاد الشام.(٥١)

## الخانات في فلسطين

انتشرت الخانات، كما رأينا، على طول الطرق التجارية الرئيسية. ومع ذلك كان هنالك نوع آخر من الخانات التي كانت تقام في المدن الكبرى ووسط الأسواق؛ وفي هذه الحالة فإنها كانت تسمى بأسماء أُخرى، أشهرها الفندق أو الوكالة أو القيسارية. وكان مبنى هذا النوع من المؤسسات يتكون عادة من طبقتين: طبقة أرضية تشتمل على عدد من الحوانيت، وطبقة علوية تتكون من شقق سكنية أو غرف نوم منفردة ينزل فيها التجار الغرباء الوافدون ببضائعهم إلى المكان. فكان من هذه الفنادق الصغير والمتوسط والكبير بحسب مساحته وعدد الدكاكين الموجودة في الطبقة الأرضية. بلغ عدد الشقق أو البيوت الموجودة في فندق/خان مسرور في القاهرة ٩٩ بيتاً، بينما وصل عدد البيوت في فندق أو وكالة قوصون إلى عدة مئات، ويصفها المقريزي بقوله: «ويعلو هذه الوكالة رباع تشمل على ثلاثمئة وستين بيتاً أدركناها عامرة كلها. ويحزر أنها تحوي أربعة آلاف نفر ما بين رجل وامرأة وصغير وكبير.» وكانت هذه الفنادق/الخانات/الوكالات عبارة عن أسواق بالجملة يصل إليها التجار الأجانب بتجاراتهم ويفرغون فيها حمولتهم، ثم يأتي التجار المحليون ويشترون ما يحتاجون إليه من هذه البضائع، بينما يقيم التجار الأجانب بغرف الفندق حتى الفراغ من بيع بضائعهم. وعندما يتحول الفندق إلى سوق بالجملة على هذا النحو فإنه ربما سمي وكالة. فيقول المقريزي عن وكالة باب الجوانيّة في القاهرة، «أنه كان موضعها عدة مساكن فابتدأ الأمير جمال الدين محمود بن علي الإستادار بهدمها وبناها فندقاً وربعاً. فلمّا كملت رسم الظاهر برقوق أن تكون دار وكالة يرد إليها ما يصل إلى القاهرة، وما يرد من صنف متجر الشام في البحر كالزيت والرّب والدّبس، ويصير ما يرد في البَر يُدخل به على عاداته إلى وكالة قوصون.» وربما تحول بعض الفنادق في المدن الكبرى، كمدينة القاهرة، إلى مستودع آمن يودعه التجار أموالهم، إذ توضع في صناديق يصف الواحد تلو الآخر في إحدى غرف ذلك المستودع.(٥٢)

وقد ورد ذكر لوجود القيسارية والوكالة في مدينة القدس. وكانت القيسارية من





جملة المنشآت التي أقامها نائب دمشق تنكز الحسامي في هذه المدينة. بينما أورد مجير الدين العليمي ذكراً للوكالة التي كانت قائمة بشارع داود عليه السلام، فوصفها بأنها خان عظيم، وأن أجرته التي كانت تبلغ ٤٠٠ دينار سنوياً كانت موقوفة على مصالح المسجد الأقصى.

ومن الخانات التي أنشئت في مدينة القدس خان السلطان، وهو نفسه الذي سماه العليمي دار الوكالة. وكان قيساريةً قبل ذلك جددت أيام السلطان الظاهر برقوق. وذكر خان تنكز القائم بسوق القطانين، وخان الملك المؤيد والذي اشتهر باسم خان القطانين، وذكرت خانات مقدسية أُخرى، مثل خان القاضي فخر الدين بن نسيبة، وخان الفحم، وخان المصرف، وخان الشعارة، وخان الزيت، وخان الجاولي، وخان العنابة.(٥٣)

### خان الظاهر في ضاحية القدس

هو الخان الذي أمر الملك الظاهر بيبرس ببنائه بظاهر مدينة القدس في الجهة الشمالية الغربية من المدينة خارج الأسوار سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣ - ١٢٦٤م. ويقال إنه شرع في بنائه سنة ٦٦١هـ في ماميلا. ولم يكن هذا الخان تجارياً يقصد به الربح، وإنما كان خاناً للسبيل، موقوفاً على أعمال البر والإحسان. وفوض السلطان بيبرس بناءه إلى الأمير جمال الدين محمد بن نهار، ثم أوكل إليه أمر إدارته والإشراف عليه. ولمّا تم بناؤه أوقف عليه قيراطاً ونصف قيراط من الطُرّة (وروي بالمطر)، إضافة إلى ما يزيد على نصف غلال قرية المشيرفة في ناحية بصرى الشام، ونصف غلال قرية لفتا الواقعة على مشارف القدس من ناحية الشمال الغربي. ويروي العليمي أن بيبرس أوقف عليه أيضاً بعض قرى ناحية دمشق، وقد حررت وثيقة الوقف وقرئت في صفر ٦٦٢هـ/كانون الأول (ديسمبر) ١٢٦٣م، بحضور السلطان وقاضي القضاة في القلعة في القاهرة، وجُعل ريع هذا الوقف محبوساً على الخان لتوفير الخبز، وإصلاح نعال من يرد على الخان من المسافرين ومن الغرباء المتجهين إلى مدينة القدس، ولصرف بعض النقود ومنحها للمعدمين من رواده. ولمّا صودرت أوقاف الخان التي كانت في دمشق توقف مشروع توزيع الخبز بالمجان على رواده والسالكين فيه. وكان الخان حصيناً محاطاً بسور، وأمر السلطان بنقل باب أحد قصور الخلفاء الفاطميين المهجورة في القاهرة ليكون باباً لهذا الخان. ومن أجل تسهيل تزويد المرتادين بالخبز والطعام فقد أنشئ في داخله طاحون وفرن، وغرس بداخله بستان.

وقد اعتاد الأمراء من رجال الدولة الذين يفدون إلى القدس في مهمات رسمية

أن ينزلوا في هذا الخان هم وحاشيتهم ومرافقوهم. وقد شجع إنشاؤه خارج السور في مشارف المدينة بعض الأعيان من ذوي المال والثراء على أن يبنوا لأنفسهم قصوراً في جواره، فلم يمض وقت طويل بعد ذلك حتى تحول المكان إلى محلة سكنية راقية يقيم بها بورجوازيو المدينة. وقد سهلت إقامة هذا الخان على زوار القدس والتجار الوافدين إليها أوضاع رحلتهم، لأنه وفر لهم المبيت في مكان مريح وآمن إذا ما وصلوا إلى المدينة ليلاً، حين كانت بوابات السور مغلقة لا تفتح إلاّ في الصباح.[٥٤]

## الخانات على الطرق في فلسطين

على خلفية الصلة بين مؤسسة الخان وتأمين التجارة الداخلية بين ولايات الدولة، وما لذلك من أثر إيجابي في الاقتصاد المدني، فقد أقيمت على طول الطرق السلطانية (الرئيسية) شبكة من الخانات. وكانت أهمية مثل هذه الشبكة لا تنبع فقط من الخلفية الأمنية الطارئة، بل لأن فلسطين كانت حلقة الاتصال الاستراتيجية بين جزأي الإمبراطورية المملوكية، الغربي في مصر والشرقي في بلاد الشام عامة، أو بين القاهرة ودمشق تحديداً.

ومن خلال المعلومات المتاحة عن هذه الحقبة من تاريخ فلسطين استطعنا أن نرصد ١١ خاناً كانت قائمة على مفاصل الطريق السلطاني بين مصر والشام. ومن الملاحَظ في هذا السياق أن إنشاء هذه الخانات لم يأت فقط بمبادرة الدولة، أو ما يمكن تسميته السياسة الرسمية ممثلة بالسلاطين أو نوابهم، بل جاءت المبادرة أحياناً من كبار التجار، وهم الفئة المستفيدة مباشرة من استمرارية النشاط التجاري وتطويره.

فأول ما يصادف القادم من مصر في رحلته إلى الشام هو خان يونس، وهو الاسم الذي تحمله المدينة الفلسطينية القائمة إلى يومنا هذا. وكان صاحب الخان وبانيه الأمير يونس بن عبد الله النوروزي، وكان واحداً من المماليك اليلبغاوية، ثم عيّنه الظاهر برقوق برتبة الدوادار الكبير، وصار من أخص الأمراء عنده. وعندما تمرد الناصري نائب الشام أرسله برقوق للقضاء على التمرد، وفي أثناء عودته إلى مصر قتله أمير آل مراء، عنقاء بن شطّي، عند خربة اللصوص على مقربة من دمشق.[٥٥]

وفي غزة أنشأ نائبها الأمير علم الدين سنجر بن عبد الله الجاولي (المتوفى سنة ١٣٤٤م) خاناً. وكان هذا الأمير هو الذي مَصّر غزة وحولها إلى مركز إداري بعد أن كانت قرية عادية. ولم يكن الخان هو المرفق الوحيد الذي أقيم في عهده، إذ ذكر أنه أنشأ البيمارستان والجامع والميدان. وكان هذا الأمير قد أكثر من إقامة المشاريع العمرانية في فلسطين، ومنها خان أقامه في قاقون وآخر في مدينة بيسان.[٥٦]





وفي الفترة نفسها تقريباً، قام الأمير تنكز الحسامي، نائب الشام (دمشق)، بإنشاء خان في قرية جلجولية القائمة إلى الشمال من منابع رأس العين بين الرملة وقاقون. ومن ميزاته أنه جعل للسبيل لا لأغراض الربح، وبذلك يكون شبيهاً بالخان الذي أنشأه الظاهر بيبرس في مشارف القدس.[٥٧]

وفي اللجون على رأس طريق وادي عارة المفضي إلى مرج ابن عامر، أنشأ التاجر المحسن الشيخ أمين بن البص خاناً جعله محبوساً على أعمال البر والإحسان، ولم يكن هذا الخان إلاّ واحداً من المشاريع الخيرية التي أسسها على نفقته ليرتفق الناس بها.[٥٨]

وفي جنين بنى الأمير طاجار الدوادار خاناً. وكانت هذه البلدة إحدى المحطات الرئيسية على الطريق إلى دمشق، فكان القادم من القاهرة عندما يصل إلى قاقون الساحلية يستطيع الاستمرار شمالاً عن طريق وادي عارة نحو اللجون ثم بيسان ويجتاز جسر المجامع إلى الضفة الشرقية لنهر الأردن ثم إلى دمشق، أو أنه كان يستطيع التوجه من قاقون يميناً نحو قرية فحمة ومنها إلى جنين، ومن هناك يتجه شرقاً في الطريق الوعر الموازي لطريق اللجون - بيسان، ليصل إلى الضفة الشرقية للشريعة. فلمّا فرغ طاجار الدوادار من بناء هذا الخان سنة ٧٤٠هـ/ ١٣٣٩ - ١٣٤٠م، أنشأ فيه حوض ماء للسبيل بعد أن أجرى إليه الماء بقناة من أحد الينابيع القريبة، وعمل فيه حماماً يرتفق به المسافرون والتجار النازلون فيه، وجعل فيه مجمعاً يضم عدة حوانيت توفر كل ما يحتاج إليه المسافر من طعام وشراب وآلة ومتاع.[٥٩]

وعلى غرار ما فعله التاجر المحسن أمين بن البص في اللجون، قام كبير تجار الشام، أو رأس الخواجيكة في مصطلح ذلك العصر، والذي اشتهر بكنيته ابن المزلّق، بإنشاء سلسلة من الخانات في شمال فلسطين أنفق على عمارتها ما يربو على ١٠٠,٠٠٠ دينار من حر ماله. وكان هذا التاجر قد صادف نجاحاً منقطع النظير في تجارته مع أوروبا وربح أموالاً طائلة. وكان نزّاعاً إلى الخير سباقاً إلى أعمال البر، فأنشأ على درب الشام - مصر عدداً من الخانات الضخمة، منها واحد في الأراضي السورية عند مدينة القنيطرة، وثلاثة في الأراضي الفلسطينية: الأول عند جسر بنات يعقوب، والثاني عند المنية الواقعة إلى الشمال الغربي من طبرية (وهي المنية المنسوبة في بعض المصادر إلى هشام بن عبد الملك الخليفة الأموي)، والثالث في عيون التجار. وزود هذه الخانات جميعاً بالماء. ولم تقتصر مشاريع ابن المزلق الخيرية على درب الشام - مصر فحسب، بل قام أيضاً بمشاريع مماثلة على درب الحاج الشامي بين دمشق ومكة المكرمة.[٦٠]

وفي هذا السياق لا بد من التطرق إلى خان العقبة على درب الحج الشامي

والمصري على حد سواء. كان هذا الخان قديماً يعود إلى العقود الأولى لحكم الأسرة الأيوبية، إذ عثر على نقش باسمه سنة ٦١٠هـ/١٢١٣ - ١٢١٤م. ويبدو أنه خرب أو دثرت آثاره مع تعاقب السنين والحوادث، فظل خرباً مهجوراً إلى أيام السلطان قانصوه الغوري، حين قرر ترميمه وربما بناءه من جديد. ففي سنة ٩١٤هـ/ ١٥٠٨ - ١٥٠٩م، رسم السلطان لمهندس السلطنة خاير بك المعمار بأن يتوجه إلى عقبة أيلة (هي العقبة اليوم) على رأس فريق من المهندسين والبنائين لإقامة الخان. امتثل كبير المهندسين للأمر السلطاني وتم إنجاز المشروع في أقل من عام. وفي السنة التالية، ٩١٥هـ/١٥٠٩ - ١٥١٠م، عندما عاد الحجاج في محرم من مكة وجدوا أن الخان بكل مرافقه قد اكتمل بناؤه، وكان جاهزاً لتقديم الخدمات اللازمة لهم. وكان الخان مسوراً تُحيط به الأبراج، وفيه الحواصل والمستودعات لحفظ ودائع الحجاج وبضائعهم التي حملوها معهم. ومن أجل ضمان سلامة النازلين في الخان وسلامة ما معهم شحنت الأبراج بالفرسان الأتراك، وهيئ لهم ولعائلاتهم السكن داخله، وجُعل بقاؤهم فيه مناوبة، إذ تمضي كل مجموعة منهم فيه سنة، ويتم بعدها استبدالها بمجموعة جديدة.[٦١]

## الجسور والقناطر

كان اهتمام المماليك بشبكة المواصلات الداخلية لا ينحصر في توفير الأمن اللازم لتحرك القوافل وتنقل المسافرين والتجار بين أرجاء المملكة فحسب، بل تعدى ذلك إلى توفير الحد الأدنى من التسهيلات والمرافق في طرقات البلاد الرئيسية، كما رأينا ذلك في شبكة الخانات المقامة على طول الطريق السلطاني الذي يوصل بين القاهرة ودمشق ويقطع أرض فلسطين من الجنوب إلى الشمال. ووجدت هذه السياسة تعبيراً آخر، عندما اهتم بعض السلاطين بتذليل العوائق التي تعترض خطوط المواصلات، سواء أكانت تلك العوائق مائية أم برية. وسنرى كيف أقيمت الجسور والقناطر على الشريعة، نهر الأردن، أو القناطر التي أقيمت على بعض الطرق المحلية لتجاوز المستنقعات أو الأودية العميقة التي تتخلل الطرق الموصلة إلى بعض الأماكن الحيوية. ففي عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون، في إبان النصف الأول من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، وفي فترة نيابة نائبه في غزة علم الدين سنجر بن عبد الله الجاولي الذي ألمعنا إلى اتساع دائرة اهتماماته العمرانية في فترة ولايته، التفت هذا الأمير المملوكي إلى تسهيل التنقلات في منطقة الساحل الفلسطيني، فأقام ما عرف باسم قناطر أرسوف، حيث كانت المياه المنسابة من ينابيع



رأس العين تشكل مع مياه السيول التي لا تجد طريقها إلى البحر مستنقعاً واسعاً يغطي مساحة كبيرة من الأرض شمالي مدينة يافا. فتنبت على أرضية هذا المستنقع غابة من شجيرات كثيفة وأنواع من القصب ونبات الحلفاء بحيث كانت تعوق حركة المرور إن لم تكن تمنعه بالمرة. فكانت هذه القناطر تساعد السكان والمسافرين الذين يريدون التوجه إلى المناطق الساحلية الشمالية من فلسطين وتقصر عليهم المسافات، فلا يضطرون إلى الالتفاف من حول هذا المستنقع الواسع بعد أن وفرت لهم القناطر حرية الوصول وسرعته.[٦٢]

وذكر بعض الروايات أن السلطان الظاهر برقوق عمّر ما سمي بقناطر برقوق في القدس، لكن ليس لدينا ما يحدد إن كانت هذه القناطر داخل المدينة أو خارجها. ومع ذلك فإن عدم ذكرها من جانب مؤرخ بيت المقدس، مجير الدين العليمي، يرجح أنها كانت خارج مدينة القدس، وإذا كانت كذلك فلا بد من أنها شبيهة بالجسر الذي يقام من فوق الأماكن الواطئة أو الأودية العميقة التي تعترض طريق المسافرين والسابلة، لتسهيل المرور في هذه البقعة الوعرة من الطريق.[٦٣]

## الجسور على نهر الأردن (الشريعة)

### جسر دامية

في سنة ٦٦٤هـ/ ١٢٦٥ - ١٢٦٦م، رسم السلطان الظاهر بيبرس بإنشاء هذا الجسر على نهر الأردن. وفي مستهل محرم ٦٦٥هـ/ تشرين الأول (أكتوبر) ١٢٦٦م، تحركت أطقم المهندسين والبنائين والفعلة إلى منطقة الغور لتنفيذ الأمر السلطاني بإقامة الجسر، الذي يطلق عليه اليوم جسر دامية والواقع بين جسر أللنبي عند أريحا وجسر الشيخ حسين بالقرب من بيسان. وكان موقعه آنذاك في نقطة بين قريتي قراوى ودامية. وتولى عملية البناء الأمير جمال الدين محمد بن نهار مع والي نابلس والأغوار الأمير بدر الدين بن رحال. وبعد أن فُرغ من بنائه حدث أن اضطرب بعض أركانه، فأمر السلطان بإصلاح الخلل الذي طرأ عليه، وعاد المهندسون والأطقم الأُخرى فوجدوا أن منسوب المياه في النهر عال يستحيل معه إتمام عملية الترميم والإصلاح، الأمر الذي اضطرهم إلى انتظار هبوط المنسوب. ويذكر مؤلفو الحوليات في هذا السياق أن معجزة حدثت، ولولاها لما استطاع المهندسون إتمام مهمتهم. فقيل إنه بينما كان أفراد الطواقم نياماً في الليل قام أحدهم ليقضي حاجة، فلاحظ أن مجرى الماء توقف، وأن قاع النهر جاف، فعاد وأخبر المهندس المشرف بحقيقة ما رأى. ولمّا شاهد المشرف ذلك أيقظ البنائين والعاملين فعكفوا على العمل حتى أتموا

إصلاح الخلل الذي اعترى بنية الجسر. وتبين فيما بعد أن انقطاع الماء إنما حدث نتيجة ردم وانهيار تراب أحد التلال، الأمر الذي سد المجرى فانقطع الماء، وظل مقطوعاً إلى أن فرغوا من إصلاح الجسر، ثم انساب في مجراه من جديد. وتذكر إحدى الدراسات المنشورة في «المجلة الآسيوية»، (عدد سنة ١٨٨٨)، أن هناك نقشاً مكتوباً على حجر العقد الأوسط مذكوراً فيه الأمر السلطاني واسم المهندس وسنة إتمام هذا الجسر. أمّا حجم الجسر فكان ممتداً على طول خمس قناطر.[٦٤]

### جسر المجامع

هو الجسر القائم على مجرى نهر الأردن بعد خروجه من الطرف الجنوبي لبحيرة طبرية، وهو واقع على الطريق السلطاني الواصل بين دمشق والقاهرة. وكان أول ذكر لترميم الجسر في هذه الحقبة من تاريخ فلسطين يعود إلى العهد الأيوبي المبكر، إذ نسب إلى الأمير عز الدين سامة (أو أسامة) الجبلي، أنه أمر ببنائه، فصار يعرف بجسر سامة. وكان الأمير الجبلي من أمراء عساكر السلطان صلاح الدين، وشارك معه في حروب التحرير، ثم ولاه بعد ذلك مدينة بيروت، وظل والياً عليها حتى استردها الإفرنج سنة ١١٩٦م. بعد ذلك نقل إلى فلسطين حيث عيّن والياً على قلعة كوكب (كوكب الهوا) وبيسان. ويبدو أن ترميم جسر المجامع جرى في فترة ولايته على هذه الناحية من فلسطين. وبعد مرور أكثر من قرنين من الزمان، وفي عهد السلطان الظاهر برقوق أعيد ترميم هذا الجسر، بل ربما توسيعه، إذ ذكر أن أقواسه (قناطره) قد زيدت حتى أصبح طولها ١٢٠ ذراعاً، وعرضها ٢٠ ذراعاً. وكان ذلك سنة ٧٩٦هـ/ ١٣٩٣ - ١٣٩٤م، عندما كان السلطان عائداً بجيشه من منطقة ديار بكر، حيث كان خرج في حملة للتصدي للغازي التتاري تيمورلنك. وإلى الشمال من بحيرة طبرية، كان يقوم في تلك الفترة جسر آخر يعرف باسم جسر يعقوب، وهو نفسه الذي يعرف في عصرنا باسم جسر بنات يعقوب، وكان قائماً في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، كما ذكر في بعض الحوليات.[٦٥]





## الفصل الثامن

# بلدانية فلسطين في الحقبة المملوكية

تعرضت فلسطين، شأنها شأن بقية بلاد الشام، لكثير من الأحداث السياسية والكوارث الطبيعية التي كانت تؤدي إلى إحداث تغييرات في البنية الديموغرافية وفي خريطة الانتشار السكاني على أرضها. ولعل الزلازل المدمرة التي كانت تجتاح البلاد، أو أجزاء منها، فتحدث دماراً هائلاً في مدنها وقراها، كانت واحدة من هذه الكوارث التي تترك عادة بصمات واضحة في هذا المجال؛ ناهيك عن الأوبئة ولا سيما الطواعين التي اشتهرت في بلاد الشام، والتي كانت تحصد أرواح الآلاف المؤلفة من سكان المدن والقرى.

لم تكن الآثار التدميرية التي تحدثها الحروب الداخلية، أو موجات الغزو الأجنبي، أقل حجماً من تلك التي تنجم عن الكوارث الطبيعية. ويكفي أن نشير في هذا الصدد إلى الغزو الصليبي الإفرنجي الذي شمل فلسطين والأجزاء الساحلية من بلاد الشام في نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، ثم ما أسفر عنه من تدمير كامل للبنية السكانية في المدن الفلسطينية، بعد أن فرّغت مدن فلسطين الساحلية والداخلية من أهلها العرب والمسلمين بسبب ما تعرضوا له من أعمال الإبادة والتهجير القسري. وقد أشرنا في الفصل الثالث أعلاه إلى نجاة أهالي الريف الفلسطيني من المصير الذي لقيه إخوانهم من أهالي المدن، لأسباب تطرقنا إلى ذكر بعضها، ولا داعي يوجب التطرق إليها مجدداً.

عند مقارنة عدد المستوطنات الصليبية بالقرى العربية الفلسطينية، التي كانت قائمة ضمن حدود مملكة القدس اللاتينية والممتدة من بيروت شمالاً حتى دير البلح (الداروم) جنوباً، مضافاً إليها القرى الواقعة في ولاية البلقاء التي كانت جزءاً من تلك المملكة، يتبين أن نسبة المستوطنات الصليبية لم تكن تتجاوز ٢٠٪ من مجموع قرى المملكة. فقد كشفت الوثائق الصليبية عن وجود ٩٠٠ قرية ضمن حدود المملكة، لكن العدد الحقيقي لتلك القرى كان يتجاوز هذا الرقم، وقدّره بعض الباحثين بـ ٢٢٠٠ قرية مع الأخذ في الحسبان شح المعلومات المتعلقة بكل مناطق المملكة وألويتها. وتبيّن المعطيات أن القرى في منطقة عكا كانت تزيد على ٨٠ قرية، وكانت قرى منطقة

القدس تجاوزت الـ ١٠٠، وبلغت قرى منطقة نابلس ما يقارب ١٠٠ قرية (الفصل الثالث أعلاه، ص ١٩٨). وقد أكد بعض المصادر الإسلامية كثافة الوجود القروي في ريف الجليل في إبان هذه الحقبة، إذ لا تدع الشهادة التي سجلها الرحالة الأندلسي ابن جبير مجالاً للشك في هذا الأمر (الفصل الثالث أعلاه، ص ١٩٨-١٩٩).

وتغيب المعلومات المتعلقة بالكثافة السكانية الريفية في فلسطين عن المصادر الإسلامية التي تناولت أحداث الحقبة التاريخية التي أعقبت تحرير فلسطين النهائي من الفرنجة في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي، بيد أن بعض المصادر زودنا بإشارات تعميمية عابرة عن عدد القرى في بعض أقاليم فلسطين أيام الدولة المملوكية، كتلك المعلومة التي سجلها ابن شاهين الظاهري (المتوفى سنة ٨٣١هـ/ ١٤٢٧ - ١٤٢٨م) حين ذكر أن عدد القرى في نيابة صفد وحدها بلغ ١٢٠٠ قرية. ولا تبدو هذه المعلومة على أهميتها ذات صدقية يعتمد عليها، لأن المؤلف المذكور ساقها استناداً إلى أحد مصادره المجهولة. وبالإضافة إلى ذلك فإنه يجب الأخذ في الحسبان أن هذا العدد اشتمل على القرى في الجنوب اللبناني الممتدة من حدود فلسطين الانتدابية حتى نهر الليطاني، فقد كانت هذه المناطق جزءاً من مملكة صفد. ومن الجدير بالذكر في هذا السياق أن مملكة صفد، أو نيابة صفد المملوكية، كانت تضم النصف الشمالي من فلسطين، من قاقون الساحلية جنوباً حتى الحدود اللبنانية في الشمال، وهي بذلك تشتمل على أكبر تجمعات فلسطين الريفية، فنيابة لها مثل هذه المساحة الواسعة يمكن أن تضم مثل هذا العدد من القرى، كما أشار إلى ذلك ابن شاهين الظاهري.

ويجب ألاّ يغرب عن البال حقيقة ما فعله السلاطين المماليك بعد تحرير الساحل الفلسطيني من الفرنجة، إذ قاموا بتدمير شامل لكل المدن الساحلية والموانئ على البحر الأبيض المتوسط، فلم يبق على امتداد سواحل بلاد الشام، من العريش على الحدود المصرية - الفلسطينية حتى طرابلس، سوى ميناء بيروت الذي لم يقوموا بتدميره. فشمل التدمير كلاً من صور وعكا وحيفا وعثليث وقيسارية وأرسوف وعسقلان، ولم يبق إلاّ مرفأ يافا الصغير على طول السواحل الفلسطينية. وكان لتدمير هذه الموانئ نتائج سلبية مباشرة أدت إلى ضمور الريف الفلسطيني، وخصوصاً القرى والضياع الساحلية التي كانت تسوّق إنتاجها عن طريق هذه الموانئ، حيث يتم شحنها إمّا إلى مصر وإمّا إلى الموانئ الأوروبية، فأخذت أعداد هذه القرى بالتراجع، كما قلت كثافتها السكانية.

ومع الاحتلال العثماني لفلسطين وبلاد الشام في إبان العقد الثاني من القرن السادس عشر حدث تحول منهجي في سياسة الإحصاء الرسمية، وشهدت فلسطين، كما غيرها من ولايات الشام، عهداً من الأمن والاستقرار والضبط الإداري، أتاح





إجراء الإحصاءات الدورية للبلاد والسكان، إذ كان يُجرى إحصاء كل ٣٠ عاماً، وحفظت هذه الإحصاءات في السجلات الرسمية بما عرف باسم دفتري - مفصل. ودلت البحوث التي عملت على هذه السجلات على زيادة في عدد السكان. وكان الإحصاء الأخير لجنوب بلاد الشام قد أجري سنة ١٠٠٥هـ/ ١٥٩٦ - ١٥٩٧م، ولم يظهر فيه أي ميل واضح إلى التراجع في أعداد القرى أو السكان. وكان عدد القرى الخالية أو الخربة قليلاً نسبياً، لم يزد على ٤٠ قرية تقع كلها على أطراف مناطق العمران بمحاذاة الصحراء التي كانت منطلقاً لغارات البدو التدميرية. وبمقارنة أعداد المزارع والضياع التي كانت تؤدي ضرائب للدولة في نهاية القرن السادس عشر بما تبقى منها في مطلع القرن العشرين، يتبين أن ما يقرب من ١٤٠٠ مزرعة وضيعة كانت قائمة في نهاية القرن السادس عشر قد اندثرت ولم تعد موجودة في خريطة فلسطين البريطانية. ويقدر بعض الباحثين أن نسبة القرى والضياع والمزارع التي اندثرت مقارنة بتلك الباقية كانت تعادل ٢,٦ إلى واحد. وليس لدينا ما يبيّن الفترة التي خربت فيها هذه القرى والضياع خلال القرون الثلاثة التي أعقبت الإحصاء الأخير لسنة ١٥٩٦.

إن المعطيات السكانية وقوائم القرى والمزارع والضياع التي وردت في سجلات الدولة العثمانية في إبان القرن السادس عشر، والتي اعتمد عليها جماعة من الباحثين الذين اعتنوا بالجغرافيا التاريخية لفلسطين خلال القرن الأول الذي أعقب الاحتلال العثماني، تنطوي على أهمية بالغة في رسم صورة دقيقة للأوضاع الديموغرافية والانتشار السكاني خلال القرن المذكور.

على الرغم من أهمية هذه المعطيات، ومع أنها تشكل مؤشراً يمكن الاستناد إليه في رسم صورة للأوضاع السكانية في الفترة المملوكية أو على الأقل في العقود الأخيرة من تلك الحقبة، فإنها لا يمكن أن تشكل صورة صادقة لتلك الحقبة. فلا يمكن أن تكون قرى ناحية مرج ابن عامر التي تظهر في الدفتر المفصل لسنة ١٥٣٨، الذي تناوله محمد عدنان البخيت بالدراسة والترجمة والتحقيق، هي القرى نفسها التي كانت قائمة في هذه الناحية أيام آخر السلاطين المماليك قبيل الاجتياح العثماني سنة ١٥١٦. وينطبق الشيء نفسه على الدراسة المماثلة التي أجراها الباحثان هوتروت وكمال عبد الفتاح والتي تناولت ألوية فلسطين بكاملها لسنة ١٥٩٦. فقد كان تقلب الأوضاع السياسية عاملاً حاسماً، شأنه شأن تقلبات الحالة الأمنية، في خراب قرية من القرى، أو في ظهور قرية جديدة. وقد أكد البخيت هذه الحقيقة عندما أشار إلى تحول عدد من المزارع والضياع إلى قرى لم تكن قائمة من قبل، وكيف أن قرى كانت قائمة هجرها أهلها فباتت مهجورة خالية من ديّاريها. وعلى هذا الأساس، فإن معرفة أسماء القرى التي كانت قائمة أيام دولة المماليك تعتمد بالتالي على ما تذكره

المصادر والحوليات التاريخية وتراجم الرجال التي تناولت التاريخ السياسي لتلك الفترة. ونخص منها بالذكر مؤلفات كل من: المقريزي؛ ابن تغري بردي؛ النويري؛ عز الدين بن أيبك الصفدي؛ ابن شاهين الظاهري؛ ابن فضل الله العمري، وأضرابهم.

وقد استطعتُ أن أحصي ما يربو على ٤٠٠ قرية داخل التخوم الفلسطينية في إبان الحقبة التي تغطيها هذه الدراسة، وذلك اعتماداً على ما أوردته المصادر الآنفة الذكر، ثم رتبت هذه القرى ترتيباً ألفبائياً، وبيّنت في أي من ألوية فلسطين الستة عشر كانت كل قرية موجودة.

## قائمة بأسماء القرى والمواقع والبلدان
## في العهدين الأيوبي والمملوكي
## مرتبة ألفبائياً في ألوية فلسطين في عهد الانتداب البريطاني

| البلدان | اللواء |
|---|---|
| **حرف (أ)** | |
| آبل القمح | صفد |
| إبثان | طولكرم |
| أبو ثور | بيت المقدس |
| أبو سنان | عكا |
| أبيان | صفد |
| إجزم | حيفا |
| أجناد | القدس |
| أخصاص | طولكرم |
| أذنا | الخليل |
| أربل | طبرية |
| إرتاح | طولكرم |
| أرسوف | يافا |
| أريحا | بيت المقدس |
| أسدود | غزة |
| إسكندرونة | عكا |
| أطرون | الرملة |
| إفراسين | جنين |
| الأقحوانة | طبرية |
| إقرت | عكا |
| أكامدا | جنين |
| إكتابا | طولكرم |
| إكسال | الناصرة |
| إكليل | عكا |
| أم التوت | جنين |
| أم الصوص | جنين |
| أم الفحم | جنين |
| أيلة | بئر السبع |
| **حرف (ب)** | |
| البابوجية | عكا |
| الباجور | حيفا |
| باقة الشرقية | طولكرم |
| باقة الغربية | طولكرم |



| البلدان | اللواء |
|---|---|
| بانياس | صفد |
| بحيرة بانياس | صفد |
| البرج الأحمر | طولكرم |
| البرج الأحمر | بيت المقدس |
| برج الذبان | عكا |
| برنيكية | جنين |
| البروة | عكا |
| برويكة | حيفا |
| البصة | عكا |
| البطيحة | طبرية |
| البعنة | عكا |
| البعينة | عكا |
| البقيعة | عكا |
| بكوزا | صفد |
| بلاطة | نابلس |
| بلعما | الناصرة |
| بورين | طولكرم |
| بيت أكار | جنين |
| بيت بيران | بيت المقدس |
| بيت جبرين | الخليل |
| بيت جن | صفد |
| بيت دراس | غزة |
| بيت صامة | طولكرم |
| بيت قاد | جنين |
| بيت لحم | بيت المقدس |
| بيت نوبا | بيت المقدس |
| بيدر | عكا |
| البيرة | بيسان |
| البيرة | رام الله |
| بيريا | صفد |
| بيرين | طولكرم |
| البيساء | جنين |
| بيسان | بيسان |
| **حرف (ت)** | |
| تبنين | صفد |
| تدارس | غزة |
| ترشيحا | عكا |
| تعنك | جنين |
| التل الأحمر | بيت المقدس |
| تل الجزر | الرملة |
| تل الصافية | الخليل |
| تل العجول | غزة |
| تل الفضول | غزة |
| تل كيسان | عكا |
| تل المفشوخ | عكا |
| تل النحل | عكا |
| تليل | جنين |
| تمرا | عكا |
| توسيان | عكا |
| **حرف (ج)** | |
| الجاعونة | صفد |
| جب يوسف | صفد |
| جبا | حيفا |
| جبعون | عكا |
| جبعيت | نابلس |
| جت | طولكرم |
| جدّ | جنين |

| البلدان | اللواء |
|---|---|
| الجدايد | جنين |
| الجديدة | غزة |
| الجديدة | عكا |
| الجديدة الشمالية | عكا |
| جسر الصنبرة | طبرية |
| جعبتون | صفد |
| جلبون | جنين |
| جلجولية | طولكرم |
| جلقموس | جنين |
| الجلمة | جنين |
| جلمة بني سعد | جنين |
| جماعيل | نابلس |
| جنبا | الخليل |
| جنجار | الناصرة |
| جنزور | جنين |
| جولس | عكا |
| جياسوار | جنين |
| جيت | نابلس |
| جيتين | غزة |
| جيدا | الناصرة |
| جيرين الصغرى | بيسان |
| جينين | جنين |

### حرف (ح)

| البلدان | اللواء |
|---|---|
| الحارثية | عكا |
| حانوتا | طولكرم |
| حبلة | طولكرم |
| حداثا | طبرية |
| حدرول | عكا |
| حرفيش | صفد |
| حصن تبنين | صفد |
| حصن الزّيب | عكا |
| حطين | طبرية |
| الحمراء | عكا |
| حمراء بيسان | بيسان |
| حمصين | عكا |
| حناتا | عكا |
| حولة بانياس | صفد |
| حيروز | جنين |

### حرف (خ)

| البلدان | اللواء |
|---|---|
| خان سيدا (صيدا) | طولكرم |
| خربة خميس | حيفا |
| خربة اللصوص | صفد |
| خربة يونس | حيفا |
| خرجا | جنين |
| الخروبة | عكا |
| الخروبة | جنين |
| خريبة الخارجة | جنين |
| خلدا | الرملة |
| الخليل | الخليل |
| خيارة | طبرية |

### حرف (د)

| البلدان | اللواء |
|---|---|
| الداروم | غزة |
| داعوق | عكا |
| الدالية | حيفا |
| دامون | عكا |
| دامية | نابلس |



| البلدان | اللواء |
|---|---|
| دامية | طبرية |
| دبورية | الناصرة |
| دجانية | نابلس |
| دنة | جنين |
| دوانه | حيفا |
| دونه | حيفا |
| دير أبو ثلجة | جنين |
| دير إستيا | نابلس |
| دير الراهب | يافا |
| دير سودان | جنين |
| دير السياج | حيفا |
| دير عوريف | نابلس |
| دير غزالة | جنين |
| دير الغصون | طولكرم |
| دير القديس لازروس | بيسان |
| دير مار الياس | حيفا |
| دير مروان | جنين |

### حرف (ذ)

| البلدان | اللواء |
|---|---|
| ذنابة | طولكرم |

### حرف (ر)

| البلدان | اللواء |
|---|---|
| راس عبده | عكا |
| رامة | عكا |
| الرامون | عكا |
| الرامون | حيفا |
| الرحاحية | عكا |
| الرخ | عكا |
| رشميا | حيفا |
| الرصيفة | عكا |
| رمانة | جنين |
| رمانة البطوف | عكا |
| الرملة | الرملة |
| الروحا | حيفا |
| رومة | الناصرة |
| ريحانة | جنين |
| الريحانية | طبرية |
| الرينة | الناصرة |

### حرف (ز)

| البلدان | اللواء |
|---|---|
| زابود | عكا |
| زبدا | جنين |
| الزراعة | جنين |
| زرعين | جنين |
| الزيب | عكا |
| زيتا | طولكرم |

### حرف (س)

| البلدان | اللواء |
|---|---|
| ساجور | عكا |
| سارونة | طبرية |
| ساسة | عكا |
| سالم | جنين |
| الساوية | نابلس |
| سبسطية | نابلس |
| سبعين | جنين |
| سخنين | عكا |
| سرطا | عكا |
| السعادة | حيفا |
| السعبة | حيفا |
| سعسع | عكا |

| البلدان | اللواء |
|---|---|
| سعسع | صفد |
| سمر | جنين |
| سمعية | صفد |
| السميرية البيضا | عكا |
| سنجل | رام الله |
| سوامر | حيفا |
| سولم | الناصرة |
| سومرا | طبرية |
| سيرين التراب | بيسان |
| سيعاية | عكا |
| سيلون | نابلس |

### حرف (ش)

| البلدان | اللواء |
|---|---|
| الشبيكة | عكا |
| الشجرة | طبرية |
| الشجرة | نابلس |
| شرابا | جنين |
| شطة | بيسان |
| شعب | عكا |
| شفرعم (شفا عمرو) | عكا |
| شمسية | صفد |
| شويكة | طولكرم |
| شيخ بريك | حيفا |

### حرف (ص)

| البلدان | اللواء |
|---|---|
| الصافية | بئر السبع |
| الصبر الفوقا | طولكرم |
| الصبيبة | صفد |
| صرفند | حيفا |
| صرفند | عكا |
| صغد عدى | عكا |
| صفد | صفد |
| الصفرا | حيفا |
| صفورية | الناصرة |
| صندلة | جنين |
| صوبا | القدس |
| صيدا | طولكرم |

### حرف (ض)

| البلدان | اللواء |
|---|---|
| ضربة الريح | حيفا |

### حرف (ط)

| البلدان | اللواء |
|---|---|
| الطاحون | عكا |
| طبرس | طولكرم |
| طبرية | طبرية |
| طربيخة | عكا |
| طرعان | الناصرة |
| طنطورة | حيفا |
| الطيبة | حيفا |
| الطيبة | طولكرم |
| طية الاسم | جنين |
| الطور (حصن) | الناصرة |
| طور زيتا | بيت المقدس |
| طوركرم | طولكرم |
| طور هارون | بيت المقدس |
| الطيرة | طولكرم |
| الطيرة الشمالية | جنين |
| الطيرة القبلية | بيسان |
| طيرة اللوز (طيرة حيفا) | حيفا |



### حرف (ظ)

| البلدان | اللواء |
|---|---|
| ظهر حمار | نابلس |

### حرف (ع)

| البلدان | اللواء |
|---|---|
| عابود | رام الله |
| عازرية (حصن) | بيت المقدس |
| عانين | جنين |
| العباسية | عكا |
| عبلين | عكا |
| عتيل | طولكرم |
| عثليث | حيفا |
| عدشيب | صفد |
| عرابة | عكا |
| عرانة | جنين |
| عربونة | جنين |
| العرج | عكا |
| عرعرا | حيفا |
| العروب | بيت المقدس |
| عسقلان | غزة |
| عسكر | نابلس |
| عطوانية | عكا |
| عفربلا | طبرية |
| عفرى (حصن) | رام الله |
| عفرى | رام الله |
| عفولة | الناصرة |
| عقبة (خان) | بئر السبع |
| عقبة البريد | بيسان |
| عقبة ظهر حمار | نابلس |
| عكبرا | صفد |
| علار | طولكرم |
| علما | صفد |
| عمقا | عكا |
| عنصر | غزة |
| العوجا | الرملة |
| عولم | طبرية |
| العياض | صفد |
| العياضية | عكا |
| عيلبون | طبرية |
| عين الأساور | حيفا |
| عين جالوت | طبرية |
| عين دور | طبرية |
| عين الزيتون | صفد |
| عين الملك | عكا |
| عينقاء | نابلس |
| عينونة | بيت المقدس |
| عيون التجار | طبرية |

### حرف (غ)

| البلدان | اللواء |
|---|---|
| الغابة | جنين |
| الغابسية | عكا |
| الغار | عكا |
| الغرابة | عكا |
| غزة | غزة |

### حرف (ف)

| البلدان | اللواء |
|---|---|
| فحمة | جنين |
| فرادية | عكا |
| الفرج | عكا |
| فرديسيا | طولكرم |

| البلدان | اللواء |
|---|---|
| فرعون | طولكرم |
| فسوطة | عكا |
| الفضول | غزة |
| الفندق | نابلس |
| فندق المشايخ | نابلس |
| الفولة | الناصرة |

### حرف (ق)

| البلدان | اللواء |
|---|---|
| قاقون | طولكرم |
| قانا | عكا |
| القباب | الرملة |
| قباطية | جنين |
| قدس | طبرية |
| قراوى | نابلس |
| قرتيا | بيت المقدس |
| القريتين | بئر السبع |
| القريديسية | نابلس |
| القرين | عكا |
| قسطة | عكا |
| قطرة | الرملة |
| قفين | طولكرم |
| قلعة بيت نوبا | بيت المقدس |
| قلعة تل الصافية | الخليل |
| قلعة جسر الأحزان | صفد |
| قلعة الداروم | غزة |
| قلعة السبع | غزة |
| قلعة الصبيبة | صفد |
| قلعة الطور | الناصرة |
| قلعة غزة | غزة |
| قلعة قاقون | طولكرم |
| قلعة القرين | عكا |
| قلعة كوكب | بيسان |
| قلعة النطرون | بيت المقدس |
| قلنسوة | طولكرم |
| قلونية | بيت المقدس |
| قيرة | نابلس |
| قيسارية | حيفا |
| القيمون | حيفا |

### حرف (ك)

| البلدان | اللواء |
|---|---|
| الكابري | عكا |
| كابول | عكا |
| كثْرا | عكا |
| الكثيب الأحمر | بيت المقدس |
| كردانة | عكا |
| كرسي | طبرية |
| كرك | حيفا |
| كسفا | طولكرم |
| كفر بردى | عكا |
| كفر توثا | حيفا |
| كفر دان | جنين |
| كفر راعي | جنين |
| كفر رام | جنين |
| كفر سبت | طبرية |
| كفر عاقب | طبرية |
| كفر عنان | صفد |
| كفر كما | طبرية |
| كفر كنا | الناصرة |
| كفر لام | حيفا |



| البلدان | اللواء |
|---|---|
| كفر مغدار | طبرية |
| كفر مندا | الناصرة |
| كفر نبتل | عكا |
| كفر ياسيف | عكا |
| كفر يما | طبرية |
| كفرتا | حيفا |
| الكفرين | حيفا |
| الكنيسة | حيفا |
| كوكب عمقا | عكا |
| كوكب الهوا | بيسان |

### حرف (ل)

| البلدان | اللواء |
|---|---|
| اللجون | حيفا |
| اللد | الرملة |
| لوبيا | طبرية |
| لوسه | حيفا |

### حرف (م)

| البلدان | اللواء |
|---|---|
| مار الياس | حيفا |
| مار سابا | حيفا |
| ماصوب | عكا |
| ماعون | طبرية |
| المجامع | طبرية |
| المجدعة | جنين |
| المجدل | عكا |
| مجدل حباب | بيت المقدس |
| مجدل العليا | عكا |
| مجدل كروم | عكا |
| مجدل يابا | الرملة |
| المجيدل | الناصرة |
| المحفر | جنين |
| مخربا | جنين |
| مرتوقا | عكا |
| مردا | نابلس |
| مزرعة البصة | عكا |
| مزرعة السميرية البيضاء | عكا |
| مزرعة العرج | عكا |
| مزرعة الكابري | عكا |
| مزرعة كفر بردى | عكا |
| مزرعة كوكب عمقا | عكا |
| مزرعة مكر حرسين | عكا |
| مزرعة المنوات | عكا |
| مِسْكة | طولكرم |
| مشهد يعقوب | صفد |
| مشهد يونس | الناصرة |
| مِعَار | عكا |
| معليا (الكرمل) | حيفا |
| المغار | طبرية |
| المغر | حيفا |
| مغرة | عكا |
| مكر حرسين | عكا |
| ملاقس | غزة |
| ملحا | حيفا |
| مليحا | صفد |
| مملحة البطيحة | طبرية |
| منداح | جنين |
| المنصورة | جنين |
| المنصورة | عكا |
| منوات | عكا |

| البلدان | اللواء |
|---|---|
| منية | طبرية |
| المونية | عكا |
| ميرون | صفد |
| ميماس | عكا |

### حرف (ن)

| البلدان | اللواء |
|---|---|
| نابلس | نابلس |
| الناصرة | الناصرة |
| الناعورة | الناصرة |
| نحف | عكا |
| النطرون (حصن) | الرملة |
| النواقير | صفد |
| نورس | جنين |
| نين | الناصرة |

### حرف (هـ)

| البلدان | اللواء |
|---|---|
| هراميس | حيفا |
| هربيا | غزة |
| هرمز | غزة |
| هوشة | عكا |

### حرف (و)

| البلدان | اللواء |
|---|---|
| وادي اسطيل | صفد |

### حرف (ي)

| البلدان | اللواء |
|---|---|
| يازور | يافا |
| ياسور | غزة |
| ياسوف | نابلس |
| يافا | يافا |
| يافة (الناصرة) | الناصرة |
| ياقوق | عكا |
| اليامون | جنين |
| اليانوجية | عكا |
| يانوح الورد | عكا |
| يُبنى | الرملة |
| يسور | حيفا |
| يما | طولكرم |





# المَصَادِر